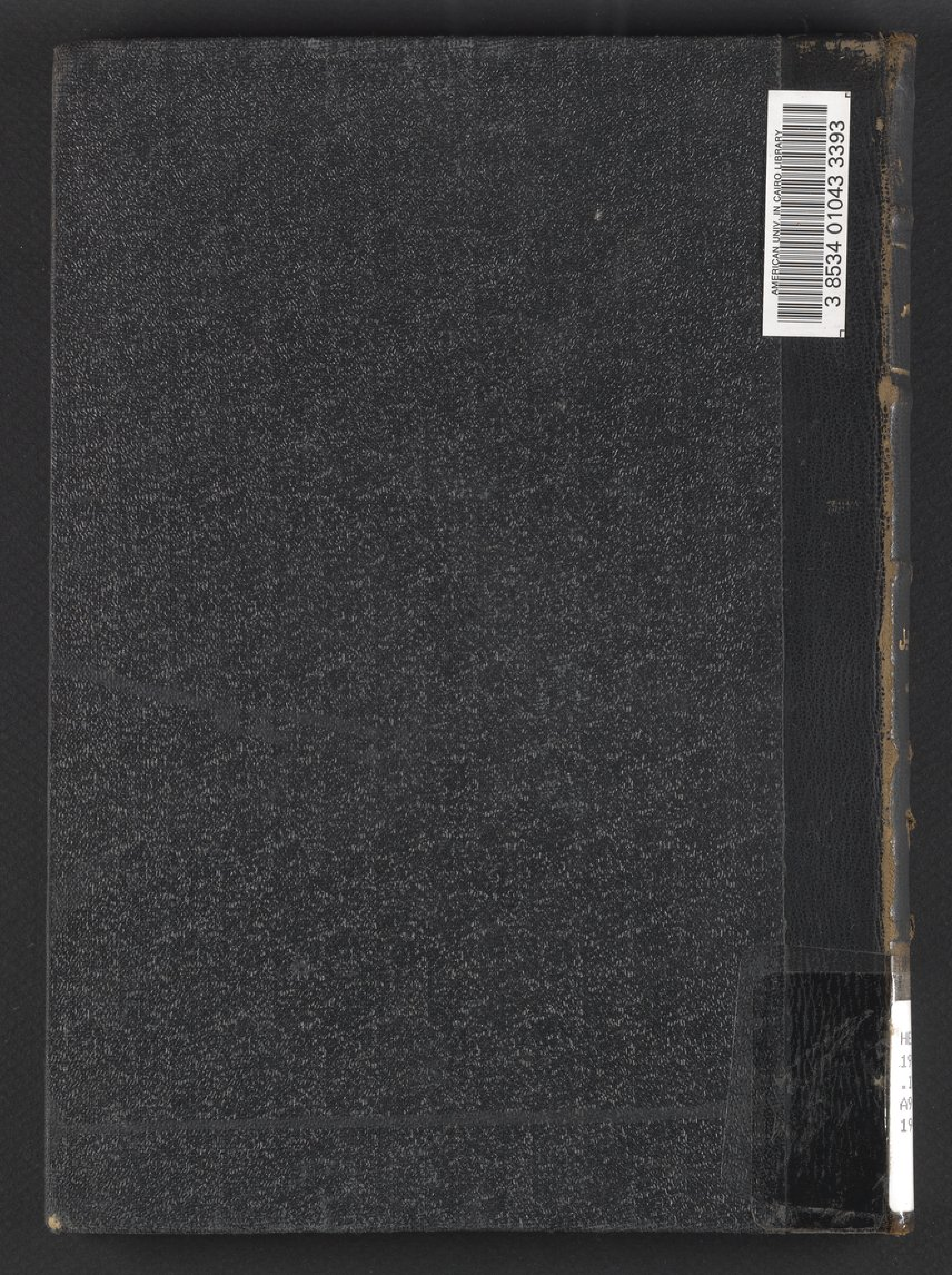
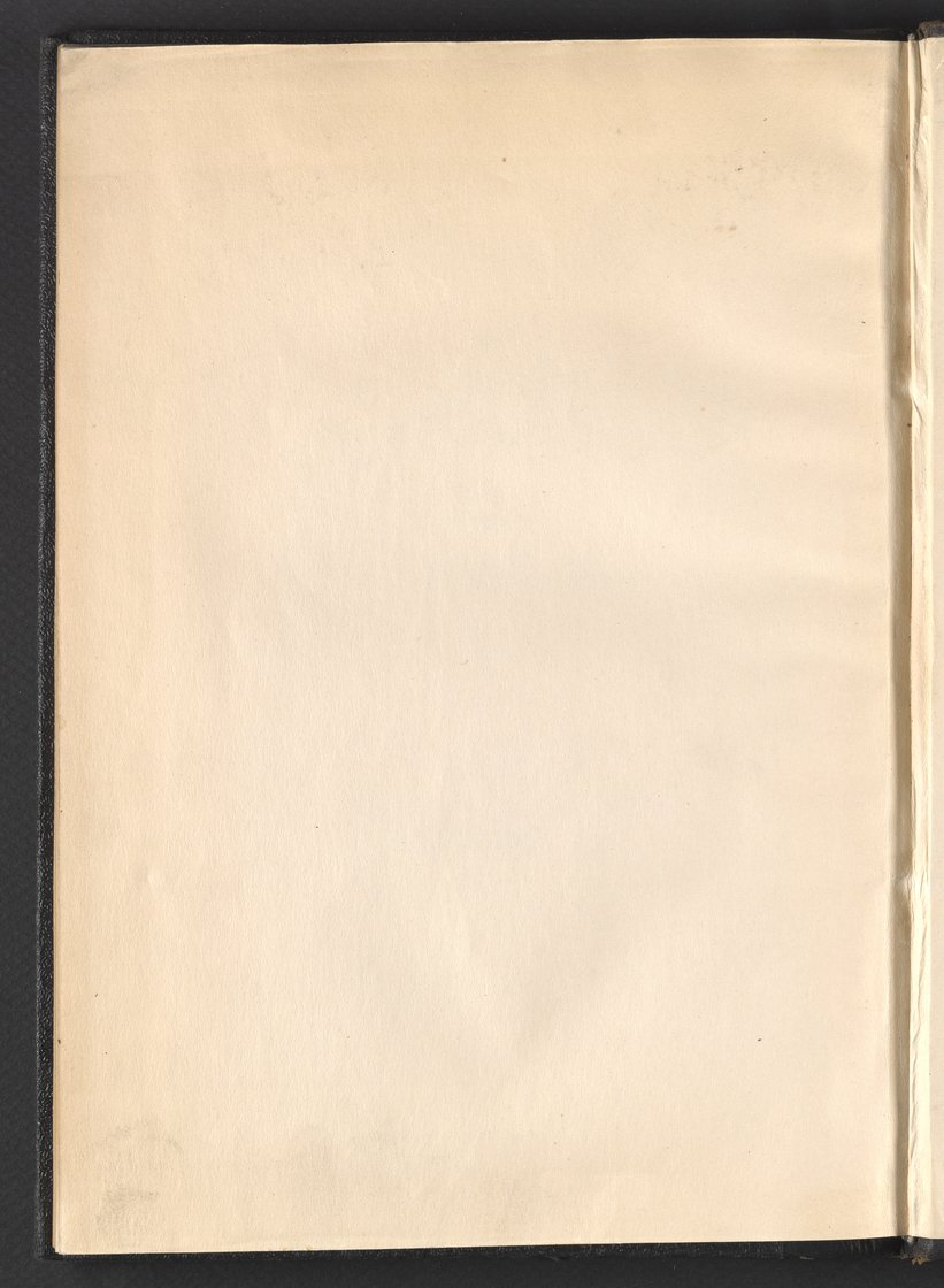
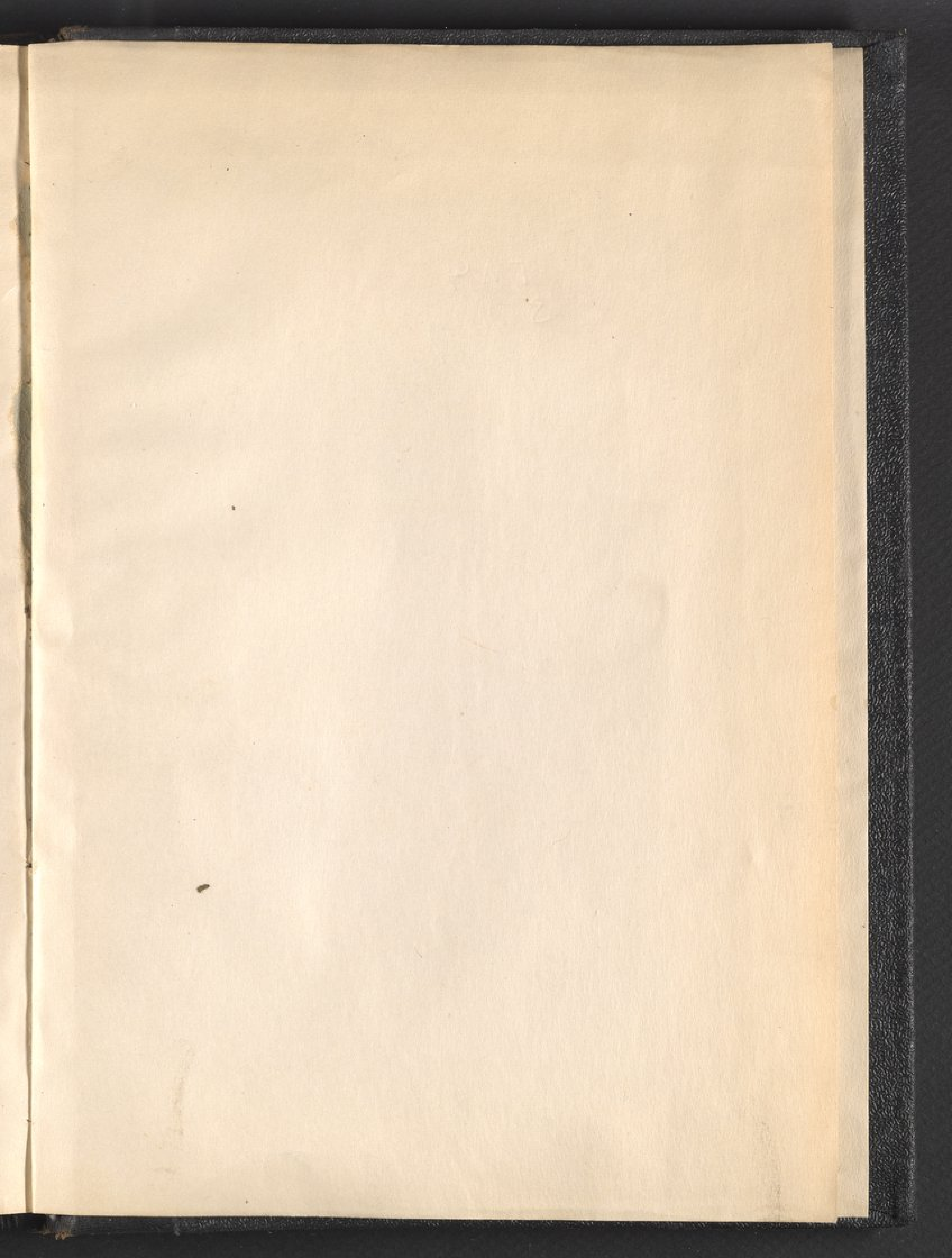
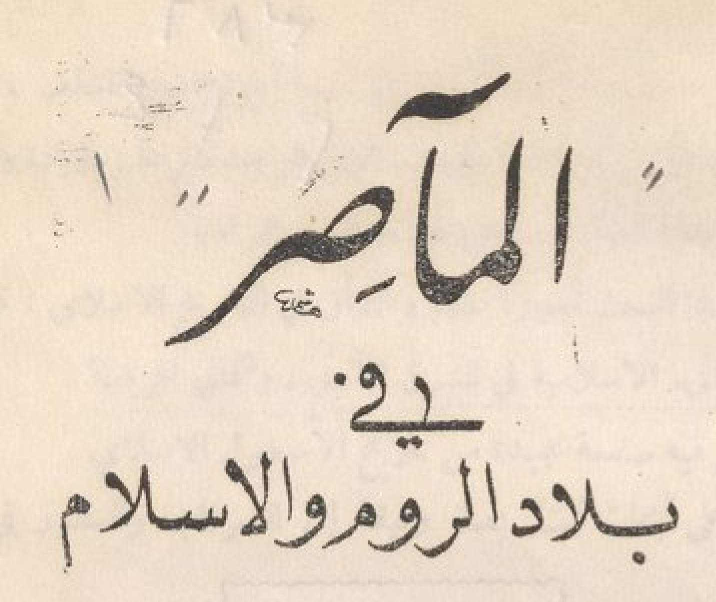

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01043 3393





دراسات في التاريخ الاقتصادي للدول الاسلامية



تأليف

"ميخائيل عوّاد"

مطبعة المعارف — بغداد

١٩٤٨

المقدمة

كنا نشرنا فصول هذا الكتاب في تسعة أجزاء من المقتطف ، ظهرت في سنة ١٩٤٤و١٩٤٥ . ثمّ عدنا إلى هذه الفصول بعد نشرها ، بالزيادة والتهذيب ، فقام من ذلك هذا الكتاب الذي نقدّمه اليوم للقراء .

يتناول هذا البحث أموراً خطيرة الشأن في التاريخ الاسلامي : فهو يبحث في تاريخ الموانىء الاسلامية في الشرق الأدنى ، وشمالي افريقية .

وتتجلّى فيه صفحة مجيدة من تاريخ الأسطول الاسلامي .

ويعطف على أبحاث تمتّ بصلة وثيقة إلى الضرائب والعشور في العصور الاسلامية .

ثم انّ هذا الكتاب ، إلى ذلك كلّه ، يَبحَثُ في الحروب الصليبية ، وفي الفتوحات الاسلامية .

لقد استندنا في كتابة هذا الموضوع إلى أوثق المصادر وأصدقها فلم نورد قولاً ما لم ندعمه بسندٍ تاريخي .

(بغداد) ميخائيل عواد

تصدير

مَن يُطالع التصانيف العربية القديمة ، وخاصة ما وضعهُ وُصّاف البلدان ومَن طوّف في الأصقاع ، يجد أموراً شتى ، تتطلب منه الوقوف والتريّث، لما لها من خطر ، وذلك استجلاءً لمعانيها التي كادت تخفى علينا الآن لبُعد العهد بها ، واستيضاحاً لما كانت عليه في تلك العصور الخوالي .

ونذكر اننا وقفنا منذ سنين على شيءٍ من هذا القبيل ، يتعلق بضربٍ من المطاحن المائية ، كان يُطلق عليه في العصور الاسلامية اسم « العُرُوب » ، فرأينا أن نستقصي ما ورد عنها في كتب الأدب والتاريخ والبلدان ، فحصل لنا من ذلك شيء وفير ، مكننا من وضع بحث فيها ونشره[1] .

وسننشر بحوثاً من هذا القبيل ، تُوضح ما جاء في تلك المؤلفات من مثل هذه المصطلحات والاوضاع التي كانت يوم ذاك أمراً مفهوماً معروفاً بين اكثر الناس ، ثم تغيرت الأحوال فخفي معناها واستبهم مدلولها أو كاد .

وها نحن أولاء نبحث في ناحيةٍ لا نظن أنّ أحداً من الكتبة المحدثين قد طرق بابها ، نعني بها « المآصر » النهرية والبرية والبحرية ، فنقول :

كان مما عُني به أولئك البلدانيون ، الثغور المتوسدة سواحل البحار ، فوصفوها بما أوتوه من علم ومعرفة ، وخصوا موانئها بقسط وافر من هذا الوصف، تلك الموانىء العجيبة التي كانت تعجّ بالسفن الذاهبة والقادمة والراسية. ولا عجب من قول بعضهم في صفة ميناء أطرابلس ، بانه « ميناء عجيب يحتمل ألف مركب[2] » ، وانّ « المراكب تحطّ فيه ليلاً ونهاراً ، وترد بالتجارة على

---

(١) العروب في العراق : (الرسالة ، العدد ٣٦٠ ، ص ٨٩٤ - ٨٩٦) .

(٢) البلدان لليعقوبي (ص ٣٢٧ ، طبعة دي غويه ، ليدن) .

مرّ الأوقات والساعات صباحاً ومساءً ، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم »[١] .

وأهم ما يسترعي الاهتمام في كثير من هاتيك الموانىء ، وجود « سلسلة » ضخمة من الحديد تعترض الميناء فتحده من جهة البحر ، رسخ أحد طرفيها في صخرة مرتفعة مشرفة على جانب الميناء ، وربط طرفها الآخر بقفل محكم الصنع وضع داخل برج مطل على الميناء من جهته الثانية . ويجلس في البرج المذكور شخص يطلق عليه اسم « صاحب القفل » بيده الامر والنهي في خروج السفن من الميناء ودخولها اليه . فيعمل على رفع السلسلة ، أو على خفضها .

وشبيه بهذا ، ما كان يجري في بعض الانهار ، غير أنه كثيراً ما استبدلت السلاسل بالقلوس ، والابراج بالسفن النهرية كما سيجيء تفصيله .

ويطلق على هذه كلها « المآصر » ، وكانت الثغور ذات المآصر تتمتع من جهة البحر ، بسلام لا يضارعها فيه إلا تلك المدن التي تحيطها الاسوار ويحرسها الحرّاس ، فالمآصر إذن ، الحصن الحصين لبعض الموانىء وسدّها المنيع ، تدفع به عنها كل غزو يأتيها من جهة البحر .

وكانت الضرائب والعشور تجبى عند هذه المآصر على كل مال وطعام وحيوان وغير ذلك مما يدخل البلاد أو يخرج منها ، على ما سنبيّنه في مطاوي بحثنا .

---

(١) صورة الأرض ـ المسالك والممالك ـ لابن حوقل (ص ٦٩ ، طبعة كريمرز ، ليدن ١٩٣٨) .

الباب الاول

المآصر النهرية في العراق

أ – المآصر في كتب اللغة وما اليها :

يُعتبر الصحاح للجوهري (المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة) من أقدم المعاجم التي ذكرت المآصر . فقد قال في مادة (أ ص ر) ما نصه : « أصر : أصره يأصره أصراً حبسه ، والموضع مأصَر ومأصِر ، والجمع مآصِر ، والعامة تقول معاصِر »[١] .

ويقول الراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) في مادة (أ ص ر) : الأصرُ عقدُ الشيء وحبسه بقهره ، يقال أَصرتهُ فهو مأصور، والمأصَروالمأصِر محبس السفينة »[٢] .

ونبّـه عليها الحريريّ (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) بقوله : « ويقولون لمركز الضرائب[٣] : المأصر بفتح الصاد ، والصواب كسرها ، لأن معناه الموضع الحابس للمار عليه ، العاطف للمجتاز به . ومن ذلك اشتقاق أواصر القرابة والعهد لأنها تعطف على ما يجب رعايته من الرحم والمودة ... »[٤] .

وفي أساس البلاغة للزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) في مادة (أ ص ر) أيضاً قوله : « ... ومضى فلان الى المأصِر وهو مَفعل من الاصر ، أو فاعل

---

(١) الصحاح (١ : ٢٨٠ ، بولاق) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص ١٧ ، المطبعة الميمنية) .

(٣) في المطبوع « الغرائب » وهو تحريف ظاهر .

(٤) درة الغواص في أوهام الخواص ، للحريري (ص ٧١ ، طبعة الجوائب) . وتـكلم الخفاجي (المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ) على « المأصر » في « شرح درة الغواص » : (ص ١٥٦) .

من المصر بمعنى الحاجز . ولعن الله أهل المآصر أو المواصر »[١] .

وجاء ابن منظور (المتوفى سنة ٧١١ هـ) ، فأفصح لنا عن أمور لم يذكرها من سبقه من أرباب اللغة . قال في مادة (أ ص ر) ما هذا بحروفه ، بترك ما لا حاجة لنا به في موضوعنا : « ... والمأصر هو مأخوذ من آصرة العهد ، انما هو عقـد ليحبس به ... ، الـكسائي : أصرني الشيء يأصرني أي حبسني ، وأصَرتُ الرجل على ذلك الأمر أي حبسته ، ابن الاعرابي أَصَرْته عن حاجته وعمّـا أردته أي حبسته ، والموضع مأصِر ومأصَر ، والجمع مآصِر ، والعامة تقول مَعاصر ... ، والمأصر يمدّ على طريق أو نهر تؤْصَر به السفن والسابلة ، أي يحبس لتؤخذ منهم العشور »[٢] .

اما الفيروز آبادي (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) فقد أشار اليها في مادة (أ ص ر) اشارة خفيفة بقوله : « والمأصِر كمجلس ومرقد : المحبس . ج : مآصر ، والعامة تقول معاصر ... »[٣] .

وتلاه السيد مرتضى الزبيدي صـاحب التاج (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ) فذكرها أيضاً في مادة (أ ص ر) ملخّـصاً أقوال بعض من تقدمه ، قال[٤] : « ... والمأصر مفعل من الاصر أو فاعل من المصر بمعنى الحاجز . ولعن المآصر ، هكذا في الأساس ولم يفسره ، وفي اللسان : والمأصر يمدّ على طريق أو نهر يؤْصَر به السفن والسابلة أي يحبس ليؤخذ منهم العشور ... » .

قال نصر الهوريني في تعليق له على ما جاء في التاج : « ولعن المآصر ، كذا بخطّـه ، والذي في الأساس : ولعن الله أهل المآصر أو المواصر . وقوله : ولم يفسره تفسيره ، هو ما ذكره عقبة عن اللسان » .

---

(١) أساس البلاغة (١ : ١٤ ، طبع دار الـكتب المصرية) .

(٢) لسان العرب (٥ : ٨٠ ـ ٨٢ ، بولاق) .

(٣) القاموس المحيط (١ : ٣٦١ ، بولاق ، الطبعة الثانية سنة ١٣٠١ هـ) .

(٤) تاج العروس (٣ : ١٥) .

وقد نبّهنا أبو منصور موهوب الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) إلى خطأ شائع في لفظ المأصر ، وقع فيه اكثر اللغويين الذين تطرّقوا إلى ذكرها ، فقال : « ... وهو المأصِر بكسر الصاد ، وفتحها خطأ . ومعنى المأصِر في اللغة الموضع الحابس من قولهم : أَصرت فلاناً عن الشيء أأصِره أصراً إذا حبسته عليه وعطفته »[١].

وممن ذكرها أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) . قال في تعريفها : « المأصِر : سلسلة أو حبل يُشد معترضاً في النهر ، يمنع السفن من المضي »[٢].

هذا ، وقد نُسب إلى المأصِر نفر من الناس . قال القاضي أبو سعد عبد الكريم السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) في مادة (المأصري) : « بفتح الميم والضاد (كذا ، والصواب الصاد) المكسورة بينهما الألف وفي آخرها الراء . هذه النسبة إلى مأصِر . وسأذكر السبب فيه . والمشهور بهذه النسبة أبو بشر يونس بن حبيب بن عبدالقاهر بن عبدالعزيز بن عمر بن قيس بن أبي مسلم العجلي المصري ، كان له محل عظيم . كاتَبه المعتز بالله كتاباً بالنظر في أمر متظلم تظلّم اليه . وهو ابن اخت حبيب بن الزبير الذي روى عنه شعبة وكان ينزل المدينة. وكان أبو مسلم من سبي الديلم ، سباه أهل الكوفة وحَسن اسلامه فولد له قيس المأصِر ، ويقال انه مولى لعليّ بن أبي طالب ، ثم وَلاّه المأصِر ، وكان أول من مصر (كذا ، والصواب مأصَر) الفرات ودجلة ، فهي قليس (كذا ، والصواب قَلْس) المأصِر ، والنسبة اليه مأصِري . وكان ممن خرج مع عبدالرحمن بن الأشعث امام الحجاج مع القراء ، فلما هزم ابن الأشعث هرب عبدالعزيز وعمر بن قيس مع أهله إلى أصبهان ، وأقام عمر بن قيس المأصِر

---

(١) تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة (ص ٤٨ ، طبع دمشق ١٩٣٦) .

(٢) مفاتيح العلوم (ص ٧٠ ، طبعة فان فلوتن . ليدن ١٨٩٥) .

بالـكوفة ... ، فهذه قصــة قيس المأصر ، واما أبو بشر يونس بن حبيب ... قلتُ : توفي قبل الثلثمائة » .[١]

واختصر هـذا الـكلام جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) فقال : « الماصري: بكسر المهملة وراء ، الى قيس الماصر ، لأنه أول من مَصر (كذا ، والصواب مأصر) الفرات ودجلة »[٢] .

هذا جل ما وقفنا عليه بشأن المآصر في الاسفار اللغوية القديمة ، وأما ما جاء عنها في المعاجم الحديثة ، فلا يعدو أن يكون تكراراً لما سبق ، لأنه في الحقيقة منقول برمّته عن هاتيك التصانيف القديمة ، ومن ثمة اكتفينا بالاشارة الى ذلك دون أن نعمد الى ايراد ما جاء فيها[٣] .

(ب) المآصر في كتب البلدان :

ان أفصح الأنباء التي اتصلت بنا بصدد المآصر النهرية ، ما أخبرنا به ابن رسته (الذي صنّف كتابه في سنة ٢٩٠ للهجرة) ، في كلامه على الطريق بين بغداد والبصرة ، فقد أوضح لنا ماهيتها، وشرح طريقة استخدامها ، ودونك ما قاله : « من بغداد الى المدائن ، ومن المدائن الى دير العاقول ، ومنه الى جرجرايا ، ومنه الي جَبُل ، ومنه الى فم الصلح ، ومنه الى واسط ، ومنه الى نهر بين ، ومنه الى الصينيّة ، ومنه الى الحوانيت ، ومنه الى القطر . وهذه القرى من واسط الى هـذا الموضع كلها شرقي دجلة . وبالحوانيت[٤]

---

(١) الأنساب (ظهر الورقة ٥٠٢ ، طبعه مرجليوث ، ليدن ١٩١٢) .

(٢) لب اللباب في تحرير الأنساب (ص ٢٣٤ ، طبعة فات ، ليدن سنة ١٨٤٠) .

(٣) أنظر مثلا : محيط المحيط لبطرس البستاني (١:٢٥) ، أقرب الموارد لسعيد الشرتوني (١ : ١٢) ، البستان لعبدالله البستاني (١ : ٤٤) ، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (١ : ٣٨٤ ، مادة أصر) ، معجم لين :
(Lane : Arabic—English Lexicon. Vol. I., London, 1863, P.63).

(٤) ذكرت الحوانيت في : المسالك والممالك لابن خرداذبه (ص ٥٩ ، طبعة دي غويه . ليدن ١٨٨٩) ، وتاريخ الطبري (٣: ١٨٥٨ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، =

أصحاب السيارة[1] والمأصر من قبل السلطان . والمأصر أن تشد سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر ، وتشد السفن على شطين . ثم تؤخذ قلوس[2] على عرض دجلة وتشد رأسها الى السفن لئلا تجوز السفن بالليل »[3] .

وقد ذكرها ابن رسته في موطن آخر من كتابه بقوله : « وبدير العاقول مسجد جامع وأسواق ومآصر ، وبها أصحاب السيارة ومأصر على دجلة »[4] .

(ج) المآصر في كتب التاريخ :

يعد أسلم بن سهل الرزّاز الواسطي المعروف بـ « بَحْشَل » (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ) من أقدم المؤرخين الذين نوهوا بأخبار بعض المآصر النهرية ، فقد حدثنا عن المأصر الذي بصريفين[5] واسط ، وهو المشهور في التاريخ باسم « المأصر الأسفل » وقد اتخذت فيه السلاسل بدل القلوس ،وكان الأمير المعروف بـ « مسروق » أشهر من أشرف على أعمال هذا المأصر . واليك جملة ما ذكره بحشل بشأنه . قال : « حدثنا أسلم ، قال : حدثنا عمرو بن صالح ، قال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة .

« حدثنا أسلم ، قال: حدثنا عليّ بن الحسن ، قال : حدثنا حفص بن غياث

= ١٩٠٦ ، ١٩١٧ ، ١٩٢٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، طبع ليدن) ، وعجائب الأقاليم السبعة لسهراب (ص ١١٨ ، طبعة مزيك ، فينة ١٩٣٠ = ص ٩ من طبعة لسترنج في المجلة الاسوية البريطانية سنة ١٨٩٥) .

(١) السيارة . والأشهر في تسميتها « الشبارة » ، ضرب من السفن النهرية أيام العباسيين. وقد أسهبنا في ذكر أخبار « الشبارة » وغيرها من ضروب السفن النهرية والبحرية الوارد ذكرها في هذا الكتاب ، في مؤلف عنوانه « السفن والمراكب في العصور الاسلامية » ، وهو تأليف كاتب هذه السطور وأخيه كوركيس عواد .

(٢) قلوس : راجع « الذيل الأول » .

(٣) الأعلاق النفيسة (ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ، طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٩٢) .

(٤) الأعلاق النفيسة (ص ١٨٦) .

(٥) أنظرها في معجم البلدان (٣ : ٣٨٦ ، طبعة وستنفلد في ليبسك) .

عن الأعمش عن أبي وائل ، قال : أقمتُ مع مسروق بسلسلة واسط سنتين .

« حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا وهب بن بقية ، قال : حدثنا حماد بن أسامة عن الأعمش عن أبي وائل ، قال : كنت مع مسروق بسلسلة واسط ، فمرت سفن فيها هدايا إلى معاوية .

« حدثنا أسلم ، قال : حدثنا سعيد بن يحي بن الأزهر ، قال : حدثنا حفص عن اسماعيل بن أبي خالد عن أبي اسحاق ، قال : كان مسروق لا يفتش أحداً ويقول لمن مرّ به : إن كان لنا معك شيء فاعطناه .

« حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحي ، قال : حدثنا عباد بن عباد عن عاصم ، قال : قلت للشعبي : كيف أفلت مسروق من عمله على السلسلة ؟ قال : أما رأيت الثوب يدفع الى القصار فيغسله فيجيد غسله . هكذا أفلت مسروق من عمله .

« حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا الحسين بن منصور ، قال : حدثنا عاصم بن عليّ ، قال : حدثنا شعبة عن ابن (لعلّه : أبي) اسحاق عن أبي وائل ، قال : كنت مع مسروق بالسلسلة ، فما رأيت أميراً قط كان أعفّ منه ما كان يصيب ماء دجلة .

« حدثنا أسلم ، قال : حدثنا اسحاق بن داود ، قال : حدثنا الحسين بن الربيع ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن اسماعيل بن أبي خالد ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة ، فجاء بعشرين ألفاً . فقال : ما جئت به ؟ قال : جئت بعشرين ألفاً . قال : هي لك . فلم يقبلها .

« حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحي ، قال : حدثنا شريك عن أبي اسحاق والأعمش أراه عن ابراهيم ، قال : أقام مسروق بالسلسلة سنتين .

« حدثنا أسلم ، قال : حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : حدثنا يزيد بن هارون ، قال : حدثنا حميد الطويل عن عبد الله بن حنين وكان شريك مسروق على السلسلة .

« حدثنا أسلم ، قال : حدثنا محمد بن اسماعيل بن سالم ، قال : حدثنا يحي بن أبي بكر ، قال : حدثنا شعبة ، قال : حدثني عبد الملك بن ميسرة ، قال :

سمعت زياداً وكان داهية وكان عشّاراً ، وكان العشارون يومئذ القراء مسروق وزياد بن حدير »[١] .

وذكر أبو بكر محمد بن يحيي الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥ ﻫ) ، في حوادث سنة ٣٣٣ ﻫ (٩٤٤ م) ، انه « عقدت الشرقية[٢] وما فيها من الاعمال على أحمد بن جعفر المعروف بابن الشرطي، بثمانية آلاف سوى الاستثناءات فانها خمسة آلاف درهم . وضمنت دجلة والمأصر الاعلى بخمسمائة دينار ، وعقد القيار بألفي درهم ، فصار الجميع نيفاً وثلاثين ألف درهم في الشهر »[٣] .

وعلى ذكر المأصر الاعلى ، حكى مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١ ﻫ) في حوادث سنة ٣٦٠ ﻫ (٩٧٠ م) ، عند كلامه على ارتفاع ابن بقية ، قال : « كان هذا الرجل (ابن بقية) من القرية المعروفة بأوانا[٤] ... ونشأ في أيام الفتنة وغلبه أهل الرستاق على طريق دجلة العليا ... وكان جرى رسمه بتقلد المآصير، واتفق له أن اتصل بصاحب مطبخ معزّ الدولة المعروف بمله وكان ضامناً لتكريت وما يجري معها من المآصير العليا وأبواب المال ، فلما خدم مله توجه معه وخف على قلبه ، فتدرج من حال الى حال حتى استعمله على هذه الاعمال كلها وفوّضها اليه ... »[٥] .

والظاهر من هذا ، أن المآصر العليا هي التي كانت مبثوثة ما بين بغداد وتكريت ـ وربما تعدت البلدة الاخيرة ـ ، تقطع دجلة في عدة مواطن ، لكن أشهرها في التاريخ هو المأصر الاعلى في بغداد . وقد ذكره أبو الفرج

(١) تاريخ واسط (الورقة ٦ ـ ٧ من النسخة المصورة في خزانة كتب المتحف العراقي) .

(٢) هي على ما في معجم البلدان (٣ : ٢٧٩) : «محلة بالجانب الغربي من بغداد ... قيل لها الشرقية لانها في شرق مدينة المنصور ، لا لأنها في الجانب الشرقي» .

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، وهو الجزء الثاني من كتاب الأوراق (ص ٢٧٦ ، طبعة هيورث دن ، القاهرة ١٩٣٥) .

(٤) أوانا : بليدة كانت من نواحي دجيل بغداد ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت .

(٥) تجارب الامم (٦ : ٢٨٥ ، طبعة آمدروز . القاهرة ١٩١٥) .

ابن الجوزي غير مرة . قال في أحداث سنة ٤٢٥ هـ (١٠٣٣ م) : « فمن الحوادث فيها عود العيارين الى الانتشار ومواصلة الكبسات بالليل والنهار ، ومضى البرجمي [١] الى العامل على الماصر الاعلى بقطيعة الرقيق [٢] ، فقرر معه أن يعطيه في كل شهر عشرة دنانير من الارتفاع ويطلقوا له سميريتين [٣] كبيرتين بغير اعتراض ، وأخذ عهده على مراعاة الموضع ... » [٤].

وها هوذا يعود إلى ذكر هذا الماصر الشهير عند كلامه على الحسن بن أبي جعفر الملقب بـ « عميد الجيوش » الذي خدم صمصام الدولة وبهاءها ، « وولاه بهاء الدولة تدبير العراق ، فقدم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة (١٠٠١ م) والفتن كثيرة ، والذُعار قد انتشروا ، فقتل وأغرق خلقاً كثيراً » ، وقد جاء في عدله وهيبته حكايات ، منها انه « أعطى بعض غلمانه صينية فضة فيها دنانير ، وقال : خذها على رأسك ، وسر من النجمي [٥] إلى الماصر الاعلى ، فان اعترضك معترض فاعطه إياه واعرف الموضع الذي أخذت منك فيه . فجاءه وقد انتصف الليل ، وقال : قد مشيت البلد جميعه فلم يلقني أحد » [٦].

ونعود الى قول مسكويه في المآصر . فقد نبّه عليها ايضاً عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) بقوله : « وانما امتعضتُ (البريدي يتكلم) لكم من ظلم ابن رائق ومحمد بن يزداد خليفته لكم ، وتحملتُ في مالي اربعة آلاف دينار في كل شهر بازاء ما كان يؤخذ من الشرطة والمآصير والشوك تخفيفاً عنكم ، وقد أزلت جميعها ، وهذا خطي برفعها عنكم ... » [٧].

---

(١) البرجمي : أنظر « الذيل الثاني » .

(٢) قطيعة الرقيق : أنظر « الذيل الثالث » .

(٣) الواحدة : سميرية ، جمعها ، سميريات : ضرب من السفن النهرية أيام العباسيين .

(٤) المنتظم (٨ : ٧٧) .

(٥) النجمي : أنظر « الذيل الرابع » .

(٦) المنتظم (٧ : ٢٥٢ ـ ٢٥٣) . وقد نقل هذه الرواية ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (٤ : ٢٢٨ ، طبع دار الكتب المصرية) .

(٧) تجارب الامم (٥ : ٣٦٤) .

وابن رائق هذا ، هو الذي وضع المآصر ببغداد ، فقد زاد صاحب التكملة[١] على قول مسكويه[٢] ، الكلام التالي : « وهو الذي وضع المآصير (المآصر) ببغداد ، وما كانت سمعت بالضرائب من قبله »[٣] .

وفعل ابن رائق هذا في أمر المآصر يقرب من فعل « ابن الهاروني » ، فقد كان كلاهما يتصرف في أمر استيفاء الدراهم من المآصر والمكوس ، ويثقل كاهل الناس بما لا طاقة لهم به . فقد حكى ابن الجوزي في أحداث سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ، ان « هذا الملعون ابن الهاروني قصده إساءة السمعة وهلاك المسلمين ، وهو السبب في جميع ما جرى ، فقبض على ابن الهاروني يوم الخميس ثامن عشر (شهر) ربيع الاول ، وجاء رسول زنكي فلقي الخليفة (الراشد بالله) ، وشكا مما جرى من ابن الهاروني وتأثيراته في المكوس والمواصير ، وقال : الخادم يسأل أن يسلم اليه ليتقرب الى الله بدمه ، فقال له ندبّر في ذلك . ثم تقدم في بكرة الأحد حادي عشرين الشهر الى أبي الكرم الوالي بقتله ، فقتل في الرحبة وصلب على خشبة قصيرة ، ومثل به العوام ، فلما جن الليل أخذه أهله وعفوا أثره ، وظهرت له من الأموال والأثاث وأواني الذهب والفضة أمر عظيم ، ووصل إلى الخليفة من ماله مائتا ألف ، وكانت له ودائع عند القضاة والتجار »[٤] .

---

(١) هو محمد بن عبد الله الهمذاني (المتوفى سنة ٥٢١ هـ) ، له تكملة لتاريخ الطبري . انظر : تجارب الامم (٥ : ٥ ، حاشية ١) ، والمنتظم (١٠ : ٨ ، حوادث سنة ٥٢١ هـ) ، والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي (ص ١٤٤ ، طبع دمشق ١٩٣٠).

(٢) قال مسكويه (تجارب الأمم ٥ : ٣٨٣) : « .. وسار موسى فياذه الى حصن مهدي فملكها ، وكانت من أعمال البصرة ، وصارت الأسافل وراءه ، ودخل الأمير سوق الاهواز فنزل دار أبي عبد الله البريدي وانتظمت له الامور ، وحصل البريدي بالبصرة واستقامت لهم ، واستقر بجكم بواسط ينازع الملك ببغداد ، وجمع ابن رائق أطرافه وأقام بها » .

(٣) تجارب الامم (٥ : ٣٨٣ ، حاشية ١) .

(٤) المنتظم (١٠ : ٥٦) .

وهكذا يجد المرء في حوادث السنين انبـاء في وضع المكوس والمآصر واقرارها واستيفاء الدراهم منها ، او اسقاطها وازالتها من عالم الوجود .

فقد كان من جملة حوادث سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، ان « أُعيدت المكوس والمواصير ، والزم الباعة ان يرفعوا إلى السلطان ثلثي ما يأخذونه من الدلالة في كل ما يباع ... »[١].

واستمرت الحال على هـذا المنوال حتى دخلت سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، ففي شهر ربيع الأول « أُزيلت المواصير والمكوس ، ونقشت الالواح بذلك ، واستوزر السلطان (مسعود) رجلاً من رؤساء الري يقال له محمد الخازن ، فأظهر العدل ورفع المكوس والضرائب ، وكان حسن السيرة ، فدخل عليه رجلان يقال لاحدهما ابن عمارة ، والآخر ابن ابي قيراط يطلبان ضمان المكوس التي ازيلت بمائة ألف دينار ، فرفع أمرهما إلى السلطان ، فشهرا في البلد مسوّدي الوجوه وحبسا ... »[٢].

ونظير هذا الحادث ما جرى في سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م). فقد روى أبو الفرج ابن الجوزي انه « طيف بالالواح التي نقش عليها ترك المكس في الاسواق ، وضربت بين يديها الدبادب والبوقات » .[٣]

وقد افاض في ذكر هذا الحادث ، سبطه ، بقوله : « وفيها (سنة ٥٤١ هـ = ١١٤٦ م) بطلت المكوس والضرائب ببغداد ، وسببه ان ابن العبادي جلس بجامع السلطان ، وحضر السلطان عنده ، فوعظه وذكر ما يجري على المسلمين من الظلم ، ثم قال : يا سلطان ، أنت تهب في ليلة لمطرب مثل هذا المأخوذ من الناس ، فاجعلني ذاك المطرب واجعل ذلك شكراً لما أنعم الله عليك . فأشار بيده ، قد فعلت . وارتفعت الضجة بالدعاء ، ونودي في البلد بالاسقاط ، وكتب

---

(١) المنتظم (٩ : ٢٢٧ — ٢٢٨) .

(٢) المنتظم (١٠ : ٧٨ - ٧٩) والكامل لابن الاثير (١١ : ٤٧ ، أوربة = ١١ : ٢٩ ، بولاق) .

(٣) المنتظم (١٠ : ١٢٠) .

به ألواح ونصبها في المحال والشوارع ، فلم يزل الأمر على ذلك حتى قلع الألواح أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، وقال : ما لنا حاجة أن يكون عندنا آثار الأعاجم »[١].

ويظهر ان اسقاطها وازالتها لم يكن طويل الأمد ، فقد عادت هذه الضرائب والمآصر إلى ما كانت عليه ، وتحكّم المكاسون والماصريون في رقاب الناس ، فارتفعت الشكاوى من كل جانب ، واستغاث الناس بالسلطان ، فأمر عماله باسقاطها ، كما جرى في سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) ، حيث كان « مرض ابن البلنكري ، وهو خاص السلطان مسعود ، فلما عُوفي أسقط المكوس . وكان المكّاس ببغداد يلقب مختص الحضرة ، وكان يبالغ في أذى الناس وأخذ أموالهم ويقول : أنا قد فرشت حصيراً[٢] في جهنم »[٣].

وورد ذكر المآصر في العمل الذي وجده هلال بن المحسّن الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨ هـ) ، المشتمل على ذكر أحمد بن محمد الطائي ، وما ضمنه من الأعمال وشرطه على نفسه من حمل مال الضمان مُياومةً إلى بيت المال . وقد شرح فيه وجه خرج المياومة ، فذكر هلال « المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف والماصريين ومَن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة الدون من المشايخ والمُترفين ومِن هذه سبيله من الرجالة الموكلين بأبواب المدينة ، وأيام شهرهم : مائة وعشرون يوماً ، من جملة ستة آلاف دينار في المشاهرة = خمسين ديناراً »[٤].

---

(١) مرآة الزمان (٨ : ١١٣ ـ ١١٤) ، وقد نقلها ابن كثير في البداية والنهاية في التاريخ (١٢ : ٢٢١) .

(٢) الحصير : الحبس . قال الله تعالى : « عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » : (سورة الاسراء ، الآية ٧) .

(٣) المنتظم (١٠ : ١٤٣) ومرآة الزمان (٨ : ١٢٤) .

(٤) تحفة الامراء (ص ١٥) . وانظر : (ص ٥٧ من مقدمة الناشر ، مادة : أصر ، الماصريون) .

(د) المآصر في كتب الأدب :

لم يترك الشعراء الأوائل أمراً من أمور الحياة ، ولا مرفقاً من مرافقها إلا قالوا فيه شعراً . وها ان أبا العباس عبدالله بن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦هـ) ، يتطرق إلى ذكر المآصر في شعرٍ خالدٍ له . فأنشد :

بالكرخ والميدان لي منزل ... ولذتي القُفص وقطربل

وخير مالٍ لي طيارة[1] ... تدبر بي في السير أو تقبل

يلاطم الماء مجاديفها ... حاملة لكنها تحمل

غايتها قصر حُميد وفي ... بستان بشرٍ دهرها الأطول

وإن تجد من مأصرٍ غفلة ... تطر الى كركين[2] لا تعدل[3]

ثم انه يعود فيذكر المآصر في أرجوزته الشهيرة التي عملها في تاريخ أمير المؤمنين المعتضد بالله العباسي ، ويشير إلى كثرة عددها في دجلة ، وما يركبه الماصريون من منكر . قال[4] :

وكان في دجلة ألف مأصر ... لم يعنها إلا جناح طائر

يجبون كل مقبل ومدبر ... مجاهرين بالفعال المنكر

كم تاجر راوغهم بزورقه ... فأغمدوا سيوفهم في مفرقه

وفرّت الأعراب في البلاد ... وأُهلكوا اهلاك قوم عاد

فأودعوا السفن مكتفينا ... مغلغلين ومصفدينا

---

(١) الطيارة ، ويقال فيها الطيار : ضرب من السفن النهرية القديمة ، اكثر ما اتخذ في العراق لركوب العظماء .

(٢) القفص ، وقطربل ، وكركين : الواردة أسماؤها في هذه الأبيات ، من قرى بغداد . كانت مواطن للقصف واللهو . ولها اخبار كثيرة طريفة في كتب البلدان والأدب .

(٣) اشعار اولاد الخلفاء واخبارهم ، وهو الجزء الثالث من كتاب الأوراق للصولي (ص ٦٩٨ طبعة هيورث دن ، القاهرة ١٩٣٦) .

(٤) الارجوزة (ص ١١ ، طبع مصر سنة ١٩١٣) .

وبعضهم مُراقــة دماؤهم · قد عَبقت بريحهم صحراؤهم
وكلهم قد كان لصاً عادياً · ما زال قدماً يعمل الدواهيا
لما رأى من السيوف برقاً · ملاءَ السراويل الطوال زرقا
فداسهم دوس الحصيد اليابس · بالخيل والرجال والفوارس

وكان القاضي المحسّن التنوخي (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ)، ممن نبّه إلى المآصر الأسفل، إذ سرد حكاية طويلة جاء في آخرها: « ... فتوجه النفاطون والرجالة إلى الزورق فضربوه بالنار، وأقبل الملاح يلطم ويصيح ويقول: يا قوم فيــه أموال الناس ... وأحرقت قلوس الزورق التي كانت تربطه وتمسكه ... فانحدر مع الماء لنفسه والنار تشتعل فيه، فوقع على الجسر فقطعه، وانحدر حتى انتهى إلى موضع معسكر سيف الدولة (لعله ابن سيف الدولة)، وكان نازلاً في المآصر بواسط »(١).

(هـ) المآصر في كتب الإدارة والسياسة:

لم نقف في المراجع التي تدخل في هذا الباب على أقدم مما ذكره القاضي أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) ـ صاحب الامام أبي حنيفة ـ، قال: « وحدثنا قيس بن الربيع عن أبي فزارة عن يزيد بن الأصم عن أبي الزبير انه قال: ان هذه المآصر والقناطر سُحت لا يحل أخذها، وبعث عمالاً إلى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من مأصرة، أو قنطرة، أو طريق شيئاً. فقدموا، فاستقل المال. فقالوا: نهيتنا. فقال: خذوا كما كنتم تأخذون »(٢).

وهذا من أقدم الاخبار التي وقفنا عليها بشأن المآصر بأنواعها الثلاثة.

ونظير ما ذكره أبو يوسف، ورد في نسخة عهد كتبه أبو اسحاق ابراهيم الصابىء، عن المطيع لله الخليفة العباسي، إلى أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبدالله بن حمدان. قال فيه: « هذا ما عهد عبدالله الفضل

(١) نشوار المحاضرة (٨ : ٩٤، نشره المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٣٠).
(٢) الخراج لأبي يوسف (ص ٨٠، طبع بولاق ١٨٨٤).

الامام المطيع لله أمير المؤمنين إلى الغضنفر بن ناصر الدولة أبي محمد ، حين تمكنت حرماته ... وأمره أن يرفع عن الرعية ما شرعه أشرار العمال من سنن الظلم وسير الغشم وأحدثوه من الرسوم الباطلة وطرقوه من المعاملات الجائرة ، ولا يستعمل عليهم عاملاً إلا باجرة ، ولا يدخل لهم ربعاً إلا باذن ، ولا يسخّر حمولة ... ولا يطالبهم بضريبة ولا مكس ، ولا يجبيهم عند مأصر ولا رصد ... »[١].

وقد مر بنا غير نبأ عن المأصر الأسفل بصريفين واسط ، وها هوذا هلال الصابىء يتطرق الى ذكره في مجرى كلامه على أحوال دار الخلافة العباسية ببغداد قال : «... ومن ذلك ، النفقات التي تطاق في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة الكراع ، وثمن القلوس للمأصر الأسفل ، وثمن الكمأة المقددة : أثنين وأربعين ألفاً وسبعة دنانير »[٢].

وقبل الانتهاء من هذا الباب ، نورد أخباراً تشبه أن تكون ذات صلة وثيقة بالمآصر النهرية . فقد ساق مسكويه في حوادث سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢م) هذا الخبر : « كان رَسَم مراكب ابن وجيه أن تشد بعضها الى بعض بالليل في عرض دجلة فيصير كالجسر ، فلما كان في الليل ونام الناس وكل من في المراكب، أشعل ذلك الملاح السعف ، وأرسل الزورقين والنار فيهما ، فوقعا على تلك المراكب والشذاءات ، فاشتملت واحترقت قلوسها واحترق من فيها ... »[٣].

وما من شك في ان ابن وجيه ، انما عمد الى عمله هذا الذي ينطوي على المكر والايقاع ، اصطياداً للسفن المنحدرة في دجلة وسلباً لما تحمله من مال وزاد .

---

(١) رسائل الصابىء (ص١٣٨ - ١٣٩ ، نشرها الأمير شكيب ارسلان، بعبدا - لبنان- سنة ١٨٩٨) .

(٢) رسوم دار الخلافة (الورقة ٣٠ من المخطوط) ، وهو كتاب حققناه واعددناه للنشر.

(٣) تجارب الامم (٦ : ٤٦) .

وروى الوزير أبو شجاع في أحداث سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) ما جرى عليه أمر لشكرستان بن ذكي بالبصرة الى أن استقر ما بينه وبين مهذب الدولة من الصلح، قال: « فاختلفت الرواية في دفعه عنها، فقيل ان أهل البصرة قويت نفوسهم فوثبوا على الديلم، وانصرف لشكرستان من غير حرب إلى أسافل دجلة، وقيل: بل عقد جسراً في الموضع المعروف بالجل وقال: الديلم يرمون كل مَن يرد من نهر (ابن) عمر. وجعل أمامه سلسلة حديد ممتدة من إحدى حافتي نهر ابن عمر الى الاخرى، ليدفع عن الجسر ما يرسل على الماء من شاشات القصب المضرمة بالنار، تغوص بثقلها فتعبر الشاشات عليها فتغرقها، فوافى عسكر البطيحة من نهر ابن عمر وجمعوا قصباً كثيراً بعرض النهر وأرسلوه مضرماً بالنار وجعلوا سفنهم التي فيها مقاتلتهم من ورائه، فوقع على السلسلة وتقطعت، وعلى السفن الصغار فاحترقت، ووصل إلى الجسر، ودخل عسكر البطيحة البصرة يقدمهم ابن مرزوق وعسكره إلى الجزيرة ... »[1].

وحكى ابن كثير في أخبار سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) انه « جاءت البريدية لغزو العراق، ونودي في الناس بذلك، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد... »[2].

يؤخذ مما تقدم ان المآصر النهرية كانت منبثة في غير مكان على دجلة والفرات، على ان أهمها ما كان في بغداد - وفي أعلاها المأصر الأعلى -، والحوانيت، ودير العاقول، والعلث، والسكوفة، وصريفين واسط - وعندها المأصر الأسفل -.

---

(١) ذيل تجارب الامم (ص ٢٧٢ - ٢٧٣، طبعة آمدروز). وفي (ص ٢٧١) أخبار لشكرستان هذا، فلتراجع.

(٢) البداية والنهاية (١٣ : ٣٢٢).

الباب الثاني

المآصر البرية في العراق

مرّ بنا في صدر بحثنا أن « المأصر يمد على طريقٍ أو نهرٍ يؤصر به السفن والسابلة ، أي يحبس ليؤخذ منهم العشور » .

وأنت راءٍ ان ما ورد من أخبار المآصر النهرية ، مقدار حسن .

أما المآصر البرية فأخبارها نزر للغاية ، وشاع أمرها يوم بدأت أطراف دولة بني العباس تنفصل عن الام وتستقل بشؤونها . فكانت المآصر البرية هذه تقام بين مقاطعةٍ ومقاطعة ، وفيها يجري التفتيش وأخذ الضرائب من الوارد والصادر .

وعلى ذلك فان هذا الضرب من المآصر كان لا يستقرّ في مكان ، لأن حدود هاتيك الأطراف كانت في تبدل مستمر (١).

وأقدم ما وقفنا عليه من أخبار المآصر البرية ، يرتقي إلى المائة الرابعة للهجرة ، لمح اليه البشاري المقدسي ، ولم يصرح بتسميته بالمأصر ، ولكنه المأصر البري بعينه . قال في عرض كلامه على « الضرائب » في اقليم العراق ، انها كانت « ثقيلة كثيرة محدثة في النهر والبر . وفي البصرة تفتش صعب وشوكات منكرة ، وكذلك بالبطائح تقوّم الأمتعة وتفتش . وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة ، وللديلم ديوان آخر ، حتى انه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم ، ولا يفتح إلا ساعة من النهار . وإذا رجع الحاج مكسوا أحمال الأدم والجمال الأعرابية ، وكذلك بالكوفة وبغداد ، ويؤخذ من الحاج للحمل ستون ،

---

(١) أفادني بهذا ، الدكتور عبد العزيز الدوري . فله مني الشكر .

ومن الـكنيسة أو حمل البر مـائة ، ومن العمارية خمسون ومائة بالبصرة والكوفة » .[١]

وقد وقفنا على خبر مأصرٍ بري كان في بلد العقر ، انفرد بذكره ياقوت في قوله : « ... والعقر قرية في لحف جبل حمرين من جهة الموصل ، وبه مأصِر لصاحب الموصل ، يأخذون فيه الخفارة لحفظ السابلة ، ولا ينفعون شيئاً ، ويُعرف بعقر ابن زُعلى . وابن زُعلى أمير تركماني تكفّل به لحماية هذا الموضع وقرر على كل حمل شيئاً يسيراً ، ثم استبدل به من ضاعف المقرر اضعافاً كثيرة ، ولم يغنِ شيئاً البتة »[٢] .

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ، طبعة دي غويه ، ليدن ١٩٠٦) .

(٢) المشترك وضعا والمفترق صقعاً لياقوت الحموي (ص ٣١٢ ـ ٣١٣ ، طبعة وستنفلد) .

الباب الثالث

المآصر البحرية

اختصت بعض المدن الراكبة سواحل البحار بنوع من المآصِر الضخمة ، تتخذ من سلاسل حديد ، ويدخل في تركيبها أقفال محكمة الصنع ، توضع عند أطراف السلاسل تفتح وتغلق عند الحاجة ، فاذا أريد ادخال سفينة إلى الميناء ، أرخيت السلسلة من جانب القفل حتى تغوص في الماء ، فتمر السفينة من فوقها ، ثم تشد السلسلة بعد ذلك . ولا يكون للقلوس أثر في هذا الصنف من المآصر ، لعدم قدرتها على مقاومة الشلنديات والشواني والبُطس والمرمات والحربيات والحراقات ونحوها من مراكب البحر الكبيرة ، ذلك فضلاً عن تأثير المياه المالحة فيها التي تذهب بمتانتها وتتلفها في مدة وجيزة .

وأشهر المدن الساحلية ذات المآصر أو السلاسل[١] كما أسماها البلدانيون ، هي: باب الأبواب ، والمهدية ، وعكة ، وصور ، واللاذقية ، ورودس، ودمياط ، والاسكندرية ، والسويس ، فضلاً عن خليج القسطنطينية .

الفصل الأول

مآصر بلاد الروم

(١) مأصر خليج القسطنطينية :[٢]

أمر هذا المأصر قديم بعيد العهد ، وأقدم الاخبار التي وقفنا عليها بشأنه ترتقي إلى صدر الاسلام ، إذ ورد ذكره في قصة معاوية بن أبي سفيان مع

(١) لم يشر المؤرخون والبلدانيون الى تسمية هذه السلاسل بالمآصر، ولكن الذي نستنتجه انها المآصر البحرية بعينها .

(٢) هو المعروف في زماننا ب « مضيق البوسفور » .

الرجل الصوري الذي أسر بطْـريق الروم من مدينة القسطنطينية . فقـد روى المسعودي قائلاً : « وأخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه ، ان الروم صوّرت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية فأقاد منه بالضرب ورده إلى القسطنطينية،... فأما خبر معاوية وما ذكرناه من خبر الرجل الذي أسر البطْـريق من مدينة القسطنطينية ، فهو ان المسلمين غزوا في أيام معاوية ، فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدي الملك ، فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك ، فلطم حرّ وجهه فآلمه ، وكان رجلاً من قريش ، فصاح وا إسلاماه ! أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا . فنمى الخبر إلى معاوية ، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب ... ثم أجال الأمر في إعمال الحيلة باقامة الفداء بين المسلمين والروم ... فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية ... أخذ الصوري خبر البطْـريق من أصحاب القوارب والمراكب ، فأخبر أن البطريق في ضيعته ، وذلك ان الخليج طوله نحو من ثلاثمائة ميل وخمسين ميلاً بين هذين البحرين وهما : الرومي والبنطس [1] ... والعمائر على هذا الخليج من حافتيه ، والمراكب والقوارب تختلف بأنواع المتاع والأقوات الى القسطنطينية ، . . . وقال للصوري : سر معه حتى تأتي الخليج فتطرحه فيه ومن كان أسر معه ، ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته ... فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين ببلاد الروم ، وقربوا من فم الخليج ، وإذا به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به ... » [2] .

---

(١) في المطبوع « النيطس » ، وهو تحريف . وبحر بنطس (Pontus) هوالمعروف في زماننا بـ « البحر الأسود » .

(٢) مروج الذهب (٨ : ٧٤ - ٨٧ ، طبع باريس ، وراجع أيضاً (٢ : ٣١٦-٣١٨).

وهذا أبو القاسم عبيد الله بن خُرداذبه (المتوفى في حدود سنة ٣٠٠ هـ)، ذكر هذا المأصر حين وصفه خليج القسطنطينية ، قال[1] : « ويمر الخليج حتى يصب إلى بحر الشام ، وعرضه عند مصبه أيضاً قدر غلوة سهم ، يكلم الرجل الرجلَ على شطيه ، وهناك صخرة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج ... »[2] .

وعلى ذكر الخليج ، نورد ما قاله في مكان آخر من كتابه : « ... ويسيل منها خليج عند قسطنطينية حتى يصب في بحر الروم ، وطوله من حيث ابتدائه من مدينة قسطنطينية إلى حيث يصب ، مائتان وستون ميلاً ، وفيه سفن ، وعرضه مختلف ، فأما عند القسطنطينية فقد (كذا ، والصواب : فقدره) ثلثة أميال ، وفي موضع آخر ستة أميال ، وفي موضع آخر ميل وأكثر وأقل ، ويكون عرضه عند مصبه مقدار غلوة ، وبذلك الموضع صخرة عليها برج مبني، وفيه من قبل الروم من يفتش السفن »[3] .

وتابع أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (الذي نبغ سنة ٣٤٠ هـ) سلفه ابن خرداذبه في ذكر سلسلة خليج القسطنطينية . فقد قال في معرض كلامه على بحر الروم : « ... ثم تنتهي إلى شط الخليج ، وهو خليج مالح يعرف بخليج القسطنطينية ، وعليه سلسلة ممتدة لا تعبر فيه سفن البحر إلا باذن ، مثل المأصر ، ... »[4] .

وجاء من بعده ، أبو القاسم محمد بن حوقل الرحالة البغدادي الموصلي (الذي نبغ في سنة ٣٦٧ هـ) فذكرها في مجرى وصفه خليج القسطنطينية ، قال :

---

(١) المسالك والممالك (ص ١٠٤ ، طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٨٩) .

(٢) غزو المسلمين لبلاد الفرنج : أنظر (الذيل الخامس) .

(٣) المسالك والممالك (ص ٢٣١) .

(٤) المسالك والممالك (ص ٦٩ـ٧٠ ، طبعة دي غويه ، ليدن ١٩٢٧) .

« وعلى الخليج سلسلة ممتدة لا تعبر عنها سفن البحر إلا باذنٍ وعلامةٍ ، وعليها مرصد »[١].

وها هو ذا يذكر المرصد أثناء كلامه على المأصر ، كما أسماه غيره البرج ، ومن الجليّ الواضح أن يكون المرصد من متممات أمور المأصر البحري ، فعنده ترتبط السلاسل بالأقفال ، وفيه يجلس صاحب القفل يرقب السفن القادمة والمبحرة ، ويقابله في المأصر النهري السفن الأربع ، كل اثنتين منها على شاطىءٍ من النهر ، وعندها ترتبط قلوس المأصر ، وفيها يجلس الماصريون لمراقبة ذهاب السفن وإيابها ، للعمل على تفتيشها وأخذ العشور من أصحابها – ودونك ما ذكره على المرصد عند كلامه على أقليم فارس . قال : « ... وقلعة ابن عُمارة تُنسب إلى الجلندي بن كنعان ولا يقدر أحد أن يرتقي اليها بنفسه ، إلا أن يرقى به في شيءٍ من البُجُر (المحامل) ، وهي مرصد كانت لآل عُمارة على البحر يعرفون منها المراكب ، فاذا أقبلت خرجوا إليها وطالبوا أهلها بضرائبهم على ما لهم من المحمل فيها ... »[٢].

ونظير هذا ، ما ذكره عند كلامه على إرمينية وأذربيجان والران ، قال : ان « الخونج مدينة أيضاً بها مرصد على ما يخرج من أذربيجان إلى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدواب وأسباب التجارات كلها من الأغنام والبقر ، ومقاطعة هذا المرصد دائماً مائة ألف دينار وزائد إلى ألف ألف درهم وناقص في السنة ، وليس له ولما يجتاز به شبه في جميع أقطار الأرض »[٣].

وذكر في غير موطنٍ من كتابه[٤] : أعشار السفن ... والمراصد .

---

(١) صورة الأرض (ص ٢٠٢) .

(٢) صورة الأرض (ص ٢٧٢) . وانظرها في معجم البلدان (٢ : ٧١١ ، مادة الديكندان) .

(٣) صورة الأرض (ص ٣٥٣) .

(٤) صورة الأرض ، انظر مثلا (ص ٢٠٢ ، ٣٠٣) .

ولا يخفى أن منارة الاسكندرية الشهيرة ، هي خير مثال للمراصد البحرية.[١]

وممن درج سبيل هؤلاء القوم من الباحثين ، ابن الفقيه الهمذاني — أحد علماء أواخر المائة الثالثة للهجرة — ، الذي تطرق إلى ذكر المأصر الراكب على خليج القسطنطينية بقوله هذا : « ... ويمر خليج قسطنطينية حتى يصب الى بحر الشام ، وعرض الخليج بأبدُس قدر غلوة ، وإذا صار إلى بحر الشام فعرضه عند مصبه أيضاً قدر غلوة . وهناك صخرة عظيمة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج ... »[٢].

والظاهر ان هذه السلسلة رفعت من خليج القسطنطينية وزال أثرها قبل المائة الثامنة للهجرة . كما يستشف من كلام النويري (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) الذي ذكر خبرها بقوله : « وأما خليج القسطنطينية ، ويسمى بحر نيطش (بنطس) ، فان فوهته مقابلة لجزيرة رودس ، وسعتها غلوة سهم . ويُقال انه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور إلا باذن الموكل بها »[٣].

(ب) مأصر رودس :

رودس ، وقيل روذس ، على ما في كتب البلدان[٤] ، جزيرة ببلاد الروم مقابل الاسكندرية ، وهي أول بلاد افرنجة . كانت في أيام المسعودي (حدود سنة ٣٣٢ هـ) دار صناعة الروم ، بهـا تبنى المراكب البحرية ، ومراكبهم تقارب بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر ، فتغير وتسبي وتأخذ .

---

(١) معجم البلدان (١ : ٢٦١).

(٢) مختصر كتاب البلدان (ص ١٤٥ - ١٤٦ طبعة دي غويه ، ليدن ١٨٨٥) . واذا أردت مزيداً فراجع (ص ٢٨٨ - ٢٩١) .

(٣) نهاية الأرب (١ : ٢٢٦ ، طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) معجم البلدان (٢ : ٨٣٢ - ٨٣٣) ومراصد الاطلاع (١ : ٤٨٩) .

وقد وقفنا على خبر مأصرها في حدود المائة العاشرة للهجرة ، وذلك في أيام السلطان «سليمان القانوني» الذي جلس على سرير الملك في سنة ٩٢٦هـ (١٥١٩م).

قال القرماني المؤرخ ، يصف ميناء رودس ومأصرها والاستيلاء عليها :

« ... ثم ان السلطان لما بلغه ما يحصل بالمسلمين السائرين على وجه البحر من التجار والحجاج والمسافرين والصادرين والواردين من جهة كفار رودس ، أحب الجهاد اليهم ... فأمر الوزير الثاني مصطفى باشا بأن يسير بالعمارة في البحر فلا يرسي إلا على جزيرة رودس ... فساروا في نحو سبعمائة غراب[(١)] حتى أرسوا في مرسى من مراسي رودس يقال له أنف الثور . وكانت قلعة رودس من أمنع حصون الدنيا ، وكان بانيها ماهراً في الهندسة بحيث انه بنى سور القلعة تحت الأرض وعمل لها خندقاً عريضاً عميقاً وشحنها بالمدافع ، وجعل للبلد سورين في عرض سبعة أذرع ، وملأ ما بينهما ، وهو مقدار عشرة أذرع ، بالتراب والحجارة . ولها من جانب البحر ميناء عظيمة مدورة كالحوض ، ولها باب مخصوص ، وجعلوا عليها سلسلة من حديد ، ولها بعض قلل وبروج تناغي في الرفعة والاحكام سماك السماء ... »[(٢)].

الفصل الثاني

مآصر بلاد الشام

(١) مأصر اللاذقية :

اللاذقية مدينة في ساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص ، لها مرفأ جيد محكم . زارها « ابن بطوطة » في حدود سنة ٧٢٥ هـ وشاهد مأصرها البحري ،

---

(١) الغراب : ضرب من سفن البحر القديمة .

(٢) أخبار الدول وآثار الأول للقرماني ، المتوفى سنة ١٠١٩ هـ ، ص ٣١٧-٣١٨ ، طبع بغداد ، سنة ١٨٦٥م) .

ووصفه بقوله : « ..وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين ، لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة . وهي من أحسن المراسي بالشام »[١].

(ب) مأصر صور :

صُور « مدينة السواحل وبها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وهي حصينة جليلة » ، كذا وصفها مصنّفو المسالك والممالك .

أما المأصر الذي في مينائها ، فلا يقل خطراً وشأناً عن نظيره الذي في خليج القسطنطينية . وأقدم خبرٍ وقفنا عليه بهذا الشأن ، ما رواه البشاري المقدسي نقلاً عن محمد بن حسن الشيباني (المتوفى سنة ١٨٧ ، وقيل ١٨٩ هـ) ، وذلك في معرض كلامه على صُور . قال البشاري : « ... صُور مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ، يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد ، قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض ، تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الاكراه[٢]... »[٣].

وكان الرحالة الذائع الصيت ابن جبير الأندلسي (المتوفى سنة ٦١٤ هـ) ، قد زار مدينة صور في يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة (١١ أيلول سنة ١١٨٥ م) وأقام بها أحد عشر يوماً ، فكتب لنا وصفاً رائعاً لمأصر هذه المدينة ومقابلته بالذي في عكة .

---

(١) تحفة النظار (١ : ١٨٣ ، طبعة باريس) .

(٢) ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون (مادة : كتاب الاكراه) . وانظر ترجمة مؤلفه في وفيات الأعيان لابن خلكان (١ : ٦٤٧ ـ ٦٤٨ ، طبعة بولاق الأولى ١٢٧٥ هـ) .

(٣) أحسن التقاسيم (ص ١٦٣ ـ ١٦٤) . ـ وجاء في النسخة الاستانبولية لمخطوط أحسن التقاسيم ما هذا نصه : « وانما تدخل المراكب هذا الحير وتجر السلسلة كي لا يعبر عليها الروم في الليل » .

ودونك ما رواه : « صُور مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ،... وذلك انها راجعة إلى بابين : أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، ... وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، وليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها ، وعلى ذلك الباب حرّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج إلا على أعينهم ، فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وانما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية اكمل وأجمل وأحفل ... »[1].

أما الرحالة « ابن بطوطة » الذي جوّل الآفاق ، فان بدءه برحلته ، يوم خروجه من مسقط رأسه طنجة ، في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام ٧٢٥هـ (١٤ حزيران سنة ١٣٢٤ م) ، فزار بعض المواطن من شمالي افريقية ، ثم جاء إلى الديار المصرية ، ومنها خرج إلى القدس فزار مشاهدها المباركة ، ثم صعد قاصداً دمشق ، فسلك ساحل البحر ، وزار مدنه وموانئه فمر بصُور ، ووصفها وذكر مأصرها ، وكانت البلدة ومأصرها يوم ذاك في عداد الخراب . قال : « ... ثم سافرت منها (من عكة) إلى مدينة صور ، وهي خراب وبخارجها قرية معمورة ... ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة ؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها . ولها بابان ، أحدهما للبر والثاني للبحر ، ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فُصْلان كلها في ستاير محيطة بالباب . وأما الباب

---

(١) رحلة ابن جبير (ص ٣٠٨ ، طبعة رايت = ص ٣٠٤ـ٣٠٥ ، طبعة دي غويه = ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، طبع مطبعة السعادة بمصر) .

الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين ، وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه ، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ، وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك ، وكان فيما تقدم بين البرجين سلسله حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والامناء ، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم . وكان لعكة أيضاً ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار »[١].

وقد أشار القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ) إلى خراب صور ، ونقل عن الشريف الادريسي وصف هذا المأصر ، بقوله : « وكان بها مرسى يدخل اليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول ... »[٢].

(ج) مأصر عكة :

كانت مدينة عكة تزهو بمأصرها وتفاخر بمناعة سلسلته، وعلى يديها أضحت حصينة جداً لا سبيل اليها . ولعل البشاري المقدسي خير من عني بوصفها تخليداً لذكرى جده أبي بكر البناء الذي ابتنى ميناء عكة ، إذ كان يومئذٍ مهندساً بارعاً في الشام . ودونك وصف البشاري لميناء عكة ومأصرها : « عكة مدينة حصينة على البحر ... ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (ابن طولون) ، وقد كان رأى صوراً ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها، فأحب أن يتخذ لعكة مثل ذلك الميناء ، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك ، فقيل : لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء، وقيل : إن كان عند أحدٍ علم هذا فعنده ، فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه اليه ، فلما صار اليه وذكر له ذلك ، قال : هذا أمر هين ، عليّ بفلق الجميز الغليظة ، فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البري ،

---

(١) تحفة النظار (١ : ١٣٠–١٣١ ، طبع باريس) . والظاهر ان ابن بطوطة نقل صفة ميناء صور وسلسلته عن ابن جبير .

(٢) صبح الأعشى (٤ : ١٥٣) .

وخيّط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفِلَاق كلما ثقلت نزلت ، حتى إذا علم أنها جلست على الرمل ، تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك ، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتُجر السلسلة مثل صور ... »[1].

وفي شعبان من سنة ٤٣٨ للهجرة (١٠٤٧ م) ، زار الرحالة الفارسي الذائع الصيت « ناصر خسرو » ، مدينة عكة وشاهد ميناءها وسلسلته ، فوصف كل ذلك وصفاً رائعاً . فما قاله : « ... ولها قلعة غاية في الاحكام ، يطل جانباها الغربي والجنوبي على البحر ، وعلى الأخير ميناء ، ومعظم مدن الساحل كذلك . والميناء اسم يطلق على الجهة التي بُنيت للمحافظة على السفن ، وهي تشبه (الاسطبل) وظهرها ناحية المدينــة ، وحائطاها داخلتان في البحر ، وعلى امتدادها مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعاً ، وقد شدت السلاسل بين الحائطين ، فاذا أُريد إدخال سفينة إلى الميناء أُرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة من فوقها ، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء »[2].

ثم جاء ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) ، فنبه إلى مأصر عكة بقوله : « ... ثم عاد فبنى من حيث ترك ، وكلما بلغ البناء إلى الحائط الذي قبله ، أدخله فيه وخيطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، والمراكب كل ليلة تدخل البناء (صوابها الميناء) ، وتجر السلسلة بينها وبين البحر الأعظم مثل صور ...»[3].

---

(١) أحسن التقاسيم (ص١٦٢–١٦٣) وختم البشاري كلامه بقوله ، ان أحمــد بن طولون دفع الى جده أبي بكر البناء « ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب ، واسمه عليه مكتوب ، وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب » .

(٢) سفر نامه (ص ١٥–١٦ ، ترجمة يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٤٥) .

(٣) معجم البلدان (٣ : ٧٠٨ ، مادة عكة) .

ويلاحظ من هذا ، ان ياقوتاً نقل كلامه عن البشاري المقدسي .

وقد يكون البرج الذي أشار اليه القاضي بهاء الدين بن شداد (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) ، والمسمى بـ « برج الذبان » هو الذي فيه قفل المأصر (السلسلة) لميناء عكة، فمن خبره انه «لما كان الثاني والعشرين من شعبان (سنة٥٨٦هـ) جهز العدو بُطسا[١] متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكة يحرس به الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس ، فتنقطع الميرة عن البلد ... »[٢].

هذا ، وقد صرح زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢ هـ) ، بانه نقل قول البشاري المقدسي في صفة عكة ومينائها وسلسلتها[٣].

أما ابن عبد الحق ، فانه لم يفته وصفها[٤] ، ولكن يستشف من خلال كلامه انه مأخوذ من كلام ياقوت ، وهذا أمر معروف عند الباحثين ، فان كتابه يعتبر مختصراً لمعجم البلدان ومستدركاً عليه في بعض الأحيان . ولهذا السبب ، لا حاجة بنا إلى إيراد ما كتبه هذا ، ولا إلى ما كتبه القزويني من قبله[٥] ، بعد أن تبين لنا أن أولهما نقل كلامه من معجم البلدان ، وثانيهما درج خُطى البشاري المقدسي السالف الذكر .

---

(١) البطس . واحدتها البطسة . ضرب من مراكب البحر الكبيرة ، كانت تتخذ في الحروب وفي التجارة .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) – خزانة كتب الحروب الصليبية – ٣ : ١٨٤ ، طبع باريس سنة ١٨٨٤) . وانظر ص ١١٨ ففيها كلام على « برج الداوية » الذي شيد لحفظ ميناء عكة .

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد (ص١٤٨ ، طبعة وستنفلد في غوتنجن) .

(٤) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع (٢ : ٢٧١–٢٧٢ ، طبعة جوينبول في ليدن) .

(٥) كما ان الرحالتين « ابن جبير » : (ص٣٠٨ ، طبعة رايت) ، و « ابن بطوطة » : (١ : ١٣٠–١٣١ ، طبع باريس) ، أشارا الى مأصر عكة في عرض كلامهما على ميناء صور .

الفصل الثالث

ما صح بلاد مصر

مصر العزيزة « إقليم قديم جليل عظيم ، جسيم العائدة في سالف الزمان ، كان قديماً قعدد الملك يسكنه عظام الفراعنة وكبار الجبابرة »[١] ، و « هو الاقليم الذي افتخر به فرعون على الورى »[٢] .

ومصر بلد الفضائل والمحاسن ، والطلسمات والعجائب ، والكنوز والدفائن . أما فضائلها فكثيرة ، « منها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرة ، تارة بصريح الذكر ، وتارة إيماء »[٣] ، وهي من الخصب وسعة الرزق على درجة عظيمة « بدليل قوله تعالى مخبراً عن قوم فرعون : (كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين) »[٤] .

وأشير في غير موطنٍ من « العهد القديم » إلى خصب أرض مصر وغزارة محاصيلها . ففي «سفر التكوين » (١٣:١٥)، قال الله تعالى لابراهيم عليه السلام : (إن جميع الأرض التي تراها ، لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد) . وجاء في « سفر الخروج» (١٦ : ٢-٣) : (فتذمر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهرون في البرية . وقال لهما بنو اسرائيل : ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل من الطعام شبعنا ، فلم أخرجتمانا إلى هذه البرية لتقتلا هذا الجمهور كله بالجوع) .

وفي «سفر العدد» (١١ : ٥) ، قال بنو اسرائيل : (فقد ذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم) .

---

(١) صورة الارض (ص١٣٥) .
(٢) أحسن التقاسيم (ص١٩٣) .
(٣) خطط المقريزي (١ : ٣٥ ، مطبعة النيل بمصر ، سنة ١٣٢٤هـ) .
(٤) صبح الأعشى (٣ : ٢٨٢) .

« ومصر خزائن الأرضين كلها : (وآويناهما إلى ربوةٍ ذات قرار ومعين) ، وسلطانها سلطان الأرضين كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لملك مصر (اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم) »[(١)].

ومن ثم أصبحت « خزانة أمير المؤمنين التي يحمل عليها حمل مؤنة ثغوره وأطرافه ، ويقوّت بها عامة جنده ورعيته مع اتصالها بالمغرب ومجاورتها أجناد الشام »[(٢)].

أما محاسنها فلا جرم « انها مع ما اشتملت عليه من الفضائل، وحُفّت به من المآثر، أعظم الأقاليم خطراً ، وأجلها قدراً ، وأنخمها مملكة ، وأطيبها تربة ، وأخفها ماء ، وأخصبها زرعاً ، وأحسنها ثماراً ، وأعدلها هواءً ، وألطفها ساكناً. ولذلك ترى الناس يرحلون اليها وفوداً ، ويفدون عليها من كل ناحيةٍ ، وقلّ أن يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما اشتملت عليه من حسن المنظر ، وبهجة الرونق ، لا سيما في زمن الربيع، وما يبدو بها من الزروع التي تملأ العين وسامة وحسناً ، وتروق صورة ومعنى »[(٣)].

قيل : « من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها . وقال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا أزهرت »[(٤)].

ومصر « فرضة الدنيا ، يحمل خيرها إلى ما سواها ، فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر ، وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والفرنج ، وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، وثغر الاسكندرية فرضة إقريطش وصقلية وبلاد

---

(١) معجم البلدان (٤ : ٥٤٥) ، وخطط المقريزي (١ : ٣٧).
(٢) معجم البلدان (٤ : ٥٤٧) .
(٣) صبح الأعشى (٣ : ٢٨٥) .
(٤) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (١ : ٧ ، المطبعة الشرفية بالقاهرة ١٣٢٧ هـ).

المغرب . ومن جهة الصعيد يحمل إلى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن »[١] .

ومصر هذه « إقليم العجائب ومعدن الغرائب ، كان أهلها أهل مُلك عظيم وعز قديم ، وفيها من الكنوز العظيمة مالا يدخله الاحصاء ، حتى يقال إنه ما فيها موضع إلا وفيه كنز »[٢] .

ومن طريف ما قاله عبد الله بن عمرو بن العاص : « البركة عشر بركات ، في مصر تسع بركات ، وفي الأرضين بركة واحدة . والشر عشرة أجزاء ، بمصر جزء واحد ، وفي الأرض كلها تسعة أجزاء »[٣] .

أما خراجها ، فهو في مقدمة خراجات الأقاليم غزارة . قال ابن حوقل : « وجدتُ بخط أبي التمر الوراق في أخبار أبي الحسين الخصيبي ، قال : حدثني أبو خازم القاضي ، قال : قال لي أبو الحسن بن المدبّـر : لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا ، ... قال : وقال له ، إنه كان يتقلد الدواوين بالعراق ، يريد ديوان المشرق والمغرب ، قال : ولم أبتِ قط ليلةً من الليالي وعليّ عمل أو بقية منه ، وتقلدت مصر ، فكنت ربما بتُ وقد بقي عليّ شيء من العمل ، فأستتمه إذا أصبحتُ ... »[٤] .

وقال غيره ، ان « خراج مصر وحدها يضعف على جميع خراج الروم ، وحمل منها موسى بن عيسى في دولة بني العباس ألفي ألف ومائة وثمانين ألف دينار »[٥] .

---

(١) خطط المقريزي (١ : ٤٣) .

(٢) صبح الاعشى (٣ : ٢٨٦) .

(٣) مختصر كتاب البلدان (ص ٥٧) ، وحسن المحاضرة (١ : ٩) .

(٤) صورة الارض (ص١٣٥) ، وانظر معجم البلدان (٤ : ٥٤٦) ، وقد تصحف اسم القاضي فيه الى أبي « حازم » بالحاء المهملة ، خلافاً لسائر المراجع . وهو عبدالحميد بن عبدالعزيز . أنظر أخباره في تاريخ الطبري (٣ : ٢٢٠٧ ، ٢٢١١ ، ٢٢١٢ ، ٢٢١٥ ، ٢٢٢٢) ، وفي ملحق الولاة والقضاة للكندي (ص ٥١٩ ، طبعة كست).

(٥) مختصر كتاب البلدان (ص٧٦) .

فلا عجب أن تكون مصر وهي مالكة هذه الصفات العديدة، والنعم العتيدة، محط أنظار الامم ، من فرس، وروم، وفرنج، وغيرهم ، ومعقد آمالهم وأمانيهم ، فطمع فيها الطامعون في السنين السالفة ، وغزتها الجيوش غير مرة ، فعاثت بأرضها فساداً .

وكانت المدن المصرية في كل هاتيك الغزوات تعاني شدائد الحصار ، خاصة ما توسّد منها ساحل البحر، مما اضطرها إلى دفع الخطر المتوقع في كل آن ، بكل ما أوتيته من حيلة ووسيلة ، فأقام أصحابها الأسوار المنيعة حولها من طرف البر ، ومدوا السلاسل الحديد (المآصر البحرية) ذات الابراج الرصينة ، في موانيها من طرف البحر ، فأضحت منيعة لا ترام ولا يوصل اليها .

وكانت دمياط والاسكندرية والسويس ، وهي مفاتيح مصر ، أعظم الثغور ذات المآصر البحرية ، ولعلها نُصبت في رشيد والبرلس وتنيس والفرما وشطا وأخنا ، وغيرها من المدن الساحلية ، غير اننا لم نقف فيما بين يدينا من مصادر على نص صريح يشير إلى ذلك .

(١) مآصر دمياط :

١ ـ في كتب البلدان :

دمياط على ما جاء في كتب البلدان العربية ، مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل ، وهي ثغر من ثغور الاسلام ، ومن شمالي دمياط يصب ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يُقال له الأشتوم حيث يبلغ عرض النيل هناك نحواً من مائة ذراع . قال ياقوت الحموي : « وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرس ، ولا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلا باذن . ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنّيس ، وعلى سورها محارس ورباطات ... »[١] .

---

(١) معجم البلدان (٢ : ٦٠٢ ، مادة: دمياط، و١ : ٢٧٦ـ٢٧٧ ، مادة: الاشتوم). =

وممن تطرق إلى ذكر المأصر الدمياطي هذا ، اثنان من مشاهير البلدانيين ، نعني بهما زكريا القزويني ، وابن عبد الحق ، غير انهما لم يخرجا في ما سطراه عما ذكره ياقوت من قبلهما . ومما يحسن التنبيه عليه ، أن لفظة «عليها حرس» الواردة في عبارة ياقوت أعلاه ، قد حرّفت في كل من كتاب القزويني [١]، وكتاب ابن عبدالحق [٢] إلى « عليها جرس » فليصححا .

٢ ـ في كتب التاريخ :

كانت المائة السابعة للهجرة (المائة الثالثة عشرة للميلاد) مشحونة بأنباء غزو الفرنج للديار الشامية والثغور المصرية ، فطلائع جيوشهم كانت تطرق موانىء هاتيك البلاد بين حين وآخر ، ولكنهم يصدّون عنها في غالب الكرّات بفضل المآصر البحرية ذات السلاسل الحديد المحكمة الصنع ، والابراج المنيعة ، ويردّون من حيث أتوا وتخيب آمالهم في الاستيلاء على نعم البلاد وخيراتها ، والتمتع بحسنها وطيب هوائها .

وفي الأسفار التاريخية كلام مسهب على حملات الفرنج هذه ، وهي التي أطلق على أغلبها في التاريخ اسم « الحروب الصليبية » .

وبين المؤرخين طائفة ممن شهد أو سمع بالكثير من حوادث هذه الحروب ، فلم يلازموا الصمت إزاءها ، بل دوّنوا أخبارها ، وفصلوا وقائعها ، ولا غرو أن يكون ما كتبوه متقارباً في المطلب ، متباعداً في الطرز واللون ، مما حدا بنا إلى جمع ما تيسر لنا جمعه من أنبائها المتعلقة بأمر المآصر وإيراده في محله من بحثنا هذا .

= ولزيادة الاطلاع ، راجع : زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك لابن شاهين الظاهري (ص ٣٥ ، طبع باريس ١٨٩٤) . وهذا الكلام نقله المستشرق دي ساسي في « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » (ص ٢٤٥ ، طبع باريس ١٨٠٦ م) .

(١) آثار البلاد (ص ١٢٩) .

(٢) مراصد الاطلاع (١ : ٤١١) .

ولقد كان ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠ ﻫ) من أوائل المؤرخين الذين سمعوا بخبر هذه الغزوات ، لأنه كان حياً يوم ذاك ، فنقل الينا خبر حصر الفرنج مدينة دمياط ، واستيلائهم على سلسلة مينائها . ودونك ما قاله في هذا الصدد ، نرويه هنا لما له من الخطر : « لما عاد الفرنج من حصار الطور ، أقاموا بعكة إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة (١٢١٨ م) ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة[1] ، بينهم وبين دمياط النيل . فان بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط ، وقد بُني في النيل[2] برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظاً ومدوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد في النيل إلى ديار مصر . ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها . فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم ، وشرعوا في قتال من بدمياط ، وعملوا آلات ومَرَمّات[3] وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه . وكان البرج مشحوناً بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل بن الملك العادل ، وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط ، والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو

---

(١) الجيزة ، في اللغة : الناحية وجانب الوادي .

(٢) يظهر ان هناك برجاً آخر – غير البرج الذي نحن بصدده – ، شيد في دمياط باسم برج السلسلة . فقد حكى المقريزي (السلوك لمعرفة دول الملوك – بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة – ١ ، ٤١٧–٤١٨ حوادث سنة ٦٥٧ ﻫ (١٢٥٨ م) ، في معرض كلامه على الملك المظفر سيف الدين قطز : انه « بعث بالمنصور وأخيه وأمه الى دمياط ، واعتقلهم في برج عمره وسماه برج السلسلة » .

(٣) مرمات ، واحدتها مرمة ، وهي ضرب من مراكب البحر العظيمة . ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٤ ﻫ ، بقوله : « ... وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوءة من الميرة والسلاح » .

من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه، فلم يظفروا منه بشيء، وكسرت مرماتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ، ثم بعد ذلك ملكوا البرج ، فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه ... »[1] .

وممن كان عائشاً في هاتيك الأيام المؤرخ الشهير سبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) ، وقد تناول بايجاز خبر حصار الفرنج مدينة دمياط والتضييق على مأصرها البحري . ومما ذكره في حوادث سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، ان « في جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السلسلة ، وأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى العادل يخبره ويستصرخ . فلما اجتمع بالعادل أخبره ، فدق يده على صدره ومرض مرض الموت »[2] . ـ ثم واصل كلامه فذكر وفاة الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي بن مروان ، وقال : قد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ بخبر برج دمياط ، وانه انزعج ودق بيده على صدره ، وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن من جمادى الآخرة ، فتوفي في عالقين ... »[3] .

وُيعدّ شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

---

(١) الكامل في التاريخ (١٢ : ٢١٠-٢١١ ، أوربة = ١٢ : ١٣٣ ، بولاق) . ـ وانظر خزانة كتب الحروب الصليبية (٢ آ : ١١٤-١١٥ ، باريس سنة ١٨٨٧ ، القسم المستل من كتاب كامل التواريخ لابن الاثير) .

(٢) مرآة الزمان (٨ : ٣٨٩) .

(٣) مرآة الزمان (٨ : ٣٩١) .

المعروف بأبي شامة (المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) من أولئك المؤرخين الذين اتصلوا بأمور هذه الحرب ، ووقفوا على الكثير من حوادثها وأنبائها . وقد وصف برج السلسلة في ميناء دمياط خير وصف لأنه رآه رأي العيان ، وأفاض في رواية استيلاء الفرنج على هذه السلسلة ، بقوله : « وفيها (سنة ٦١٥ هـ) أخذ الفرنج النازلون على دمياط ، برج السلسلة في آخر جمادى الأول ، فأرسل الكامل إلى ابنه العادل ، شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به ، فلما اجتمع بالعادل ، فأخبره ، فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت . قلت : وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة ، وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة ، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي (علي بن محمد السخاوي) ، ورأيته يضرب يداً على يد ويعظم أمر ذلك ، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه ، فقال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق . فاني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين (وستمائة[1] = ١٢٣٠ م) كما سيأتي ذكره ، بان لي صحة ما أشار الشيخ اليه ، وذلك انه برج عالٍ مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والاخرى على النيل إلى الجيزة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ، ومتى لم تمكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان »[2].

ثم ذكر وفاة العادل في نفس السنة ، وان « سبب موته انزعاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط ، ان الفرنج استولوا على برج السلسلة ، فدق بيده على

---

(١) أنظر : الذيل على الروضتين لأبي شامة (ص ١٦٠ ، القاهرة ١٩٤٧) .

(٢) منتخبات من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، — وهو الجزء الخامس من خزانة كتب الحروب الصليبية (ص ١٦٧ — ١٦٨ ، طبعة بربيه دي مينار ، باريس سنة ١٩٠٦) .

صدره وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، فتوفي بعالقين ...»[١]

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل خبر هذا الحدث الخطير في تاريخ مصر، مؤرخ من أشهر المؤرخين، نعني به شمس الدين الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) فانه في مجرى كلامه على خلافة الناصر لدين الله العباسي، تعرّض بشيء من الايجاز إلى نزول الفرنج على دمياط والاستيلاء على مأصرها البحري، فقال: في سنة ٦١٥ هـ «نزلت الفرنج على دمياط، فجهز العادل العساكر إلى ابنه الكامل ليكشف عنها، فأقبل ونزل تجاه دمياط، فدام الحصار والقتال أربعة أشهر، فمات الملك العادل في وسط الشدة واستراح، فأخذت الفرنج برج السلسلة من دمياط، وهو برج شاهق في وسط النيل، وسابط من شرقيته والجيزة بمذابه من غربيه، وعلى جنبي البرج سلسلتان عظيمتان تمتد هذه إلى سور دمياط، والاخرى إلى سور الجيزة، تقفل السلسلتان فتمنع المراكب من العبور إلى ديار مصر في النيل»[٢].

وقد نحا ابن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) نحو سلفه الذهبي. فما رواه في حوادث سنة ٦٦٥ للهجرة، انه في شهر ربيع الأول «نزلت الفرنج على دمياط وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى (تموز ١٢١٨ م)، وكان حصناً منيعاً، وهو قفل ديار مصر ...»[٣].

ثم واصل كلامه بقوله[٤]: «وفيها توفي السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، فأخذت الفرنج دمياط، ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط، فحاصروه مدة أربعة شهور، والملك الكامل يقاتلهم ويمانعهم، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر، وصفته في وسط جزيرة في النيل عند

---

(١) منتخبات من كتاب الروضتين (ص ١٧٠).

(٢) دول الاسلام (٢ : ٨٨، طبع حيدر آباد ١٣٣٧ هـ).

(٣) و (٤) البداية والنهاية في التاريخ (١٣ : ٧٨ – ٧٩).

انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر ، وسلسلة اخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل فلا يمكن الدخول . فلما ملكت الفرنج هذا البرج ، شق ذلك على المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر ، تأوه لذلك تأوهاً شديداً ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً على المسلمين وبلادها ، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عزّ وجلّ . فلما كان يوم الجمعة سابع جمادي الآخرة توفي بقرية عالقين » .

وكان تقي الدين المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) مؤرخ مصر ومدوّن خططها وأخبارها وآثارها ، قد أفاض الكلام في دمياط وزمن إنشاء مأصرها البحري وما اصاب تلك المدينة والمأصر من نكبات الفرنج على كرّ السنين ، وفي قوله فائدة وموعظة تاريخية بليغة . قال : « دمياط كورة من كور أرض مصر ، بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسخاً ... ولما قدم المسلمون إلى أرض مصر ، كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يُقال له الهاموك ... ، وما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم في سنة تسعين من الهجرة ، فأسروا خالد بن كيسان وكان على البحر هناك ، وسيّروه إلى ملك الروم ، فأنفذه إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم ، فلما كانت خلافة هشام بن عبدالملك نازل الروم دمياط في ثلثمائة وستين مركباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة . ولما كانت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبدالله المأمون ، وكانت الفتن بأرض مصر ، طمع الروم في البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين ، ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأمير مصر يومئذٍ عنبسة بن اسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين (٢٩ آب سنة ٨٥٢ م) ، فملكوها وما فيها ، وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال[1] ... فأمر المتوكل ببناء

---

(١) أنظر هذا الموضوع في الولاة والقضاة للكندي (ص ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

حصن[١] دمياط ، فابتدىء في بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين (ومائتين) ، وأنشأ من حينئذ الاسطول بمصر ، فلما كان في سنة سبع ، طرق الروم دمياط في نحو مائتي مركب ، فأقاموا يعبثون في السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون ، وكانت للمسلمين معهم معارك ، ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الاخشيدي ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من (شهر) رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة (حزيران ٩٦٧م) في بضع وعشرين مركباً فقتلوا وأسروا ... ، وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى ، والوزير حينئذٍ الصالح طلائع بن رزيك ، نزل على دمياط نحو ستين مركباً في جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة (آب ١١٥٥ م) ... فعاثوا وقتلوا... ، وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد ، وصل الفرنج إلى دمياط في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة (١١٦٩ م) ، وهم فيما يزيد على ألف ومائتي مركب ، فخرجت العساكر من القاهرة ، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار ، فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوماً ، وكانت صعبة شديدة ... ، وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة (١١٨٩م) رُتبت المقاتلة على البرجين وشدت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورمّ شعث سور المدينة وسدت ثلمه ، واُتقنت السلسلة التي بين البرجين ، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار ، واعتبر السور[٢] ، فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعاً . وفي سنة ثمان

---

(١) حكى المقريزي في خططه (١ : ٢٩١) : ان المتوكل « أمر ببناء حصن على البحر بتنيس ، فتولى عمارته عنبسة بن اسحاق أمير مصر ، وأنفق فيه وفي حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً » . وفي كلامه على مدينة الفرما (الخطط ١ : ٣٤١) ، قال : « ... وبنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر تولى بناءه عنبسة بن اسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين ، عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالاً عظيماً ... » .

(٢) قال القلقشندي (صبح الأعشى ٣ : ٤٠٦) : « ان دمياط كان عليها أسوار من=

وثمانين وخمسمائة (١١٩٢ م) أمر السلطان بقطع أشجار[١] بساتين دمياط وحفر خندقها ، وعمل جسر عند سلسلة البرج . وفي سنة خمس عشرة وستمائة (١٢١٨ م) كانت واقعة دمياط العظمى ، ... فبرز الفرنج ... وعزموا على قصد الديار المصرية ، فركبوا بجموعهم البحر ، وساروا إلى دمياط في صفر ، فنزلوا يوم الثلاثاء رابع (شهر) ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة (٣١ أيار ، سنة ١٢١٨ م) ، ... وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل ، فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي ، وحفروا على عسكرهم خندقاً ، وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط ، فانه كان برجاً منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر في النيل ، ... وفي مدة إقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي وأقاموا أبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، فانهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل إلى القاهرة ومصر ، وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة ، فتحيـّل الفرنج عليه وعملوا برجاً من الصواري على بُطْسَة[٢] كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه ، وقاتلوا من به حتى أخذوه ... ، واشتد الفرنج وألحـّوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد ، فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً لمنع الفرنج من عبور النيل ، فقاتلت الفرنج عليه

= عمارة المتوكل أحد خلفاء بني العباس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة ، خربت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستمائة [١٢٥٠ م] خوفاً من استيلائهم عليها ، وهي على ذلك الى الآن » .

(١) روى المقريزي في حوادث سنة ٥٨٨ هـ [١١٩٢ م] : (السلوك ١ : ١١١) ، انه كتب باخلاء مدينة تنيس ، ونقل أهلها الى دمياط ، وقطع أشجار بساتين دمياط ، واخراج النساء منها ، فخلت تنيس الا من المقاتلة ، وحفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها » .

(٢) في المطبوع « بسطة » ، وهو تحريف ، صوابه ما في أعلاه .

قتالاً شديداً الى أن قطعوه ، وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار ، وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط لتدبير الامور وإعمال الحيلة في مكايدة الفرنج ، فأمر الملك الكامل أن يفرق (كذا ، وصوابها يغرق) عدة من المراكب في النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل ... »(١).

وممن نقل خبر دمياط ومأصرها البحري واستيلاء الفرنج عليها ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي(٢) (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) ، وقد صرح بأنه أخذ الرواية عن سبط ابن الجوزي السالف الذكر ، كما أن جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، تناول الكلام عليها ناقلاً أقواله(٣) عمن تقدمه من المؤرخين الذين أوردنا أخبارهم .

ولعل آخر من تناول أخبار المأصر البحري في ميناء دمياط ، هو ابن إياس المؤرخ المصري (المتوفى سنة ٩٣٠هـ) ، فقد حكى انه « لما ملك المسلمون مدينة دمياط ، أشار الأمرآء على السلطان بهدم مدينة دمياط ، فأرسل اليها الهدادين فهدموها عن آخرها ولم يبق منها سوى الجامع الكبير ، ووقع

---

(١) خطط المقريزي (١ : ٣٤٤ – ٣٤٩) ، وقد نقل هذه الأخبار برمتها علي باشا مبارك في كتابه « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة » (١١ : ٣٦–٣٨) . وقد تناول المقريزي أيضاً في كتابه « السلوك » (١ : ٧٢ ، حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، وص ١٨٨ – ١٩٠ ، ١٩٤ – ١٩٥ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ) الاخبار التي حررها في خططه بتغيير يسير لا يخرج به عن المقصد نفسه . نقول : ومن المهم ذكره ان المقريزي اعتمد في رواية هذه الحوادث على ابن الاثير اعتماداً كلياً ، وزاد عليه بعض أمور في خطط دمياط ومسالكها .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦ : ٢٧٠ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ ، و ٦ : ٢٢٢ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ ، طبع دار الكتب المصرية) .

(٣) انظر : تاريخ الخلفاء (ص ٣٠٢ – ٣٠٣ ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ) ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢ : ٢٨ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ) .

فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) ، واستمرت من يومئذ خراباً ، وصار مكان بيوتها أخصاصاً من القش على شاطىء بحر النيل يسكن فيها جماعة من الصيادين وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك إلى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فأمر بتجديد عمارتها ، فارسل اليها جماعة من البنائين والحجارين ، وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وستمائة (١٢٥٢ م) ، فجدد بناء سورها ، وأمر بردم فم البحر الذي تدخل منه مراكب الفرنج ، فردموه من القرابيص [١] التي كانت هناك من الهدم القديم ، فامتنعت المراكب الكبار من الدخول إلى بحر النيل من يومئذ . ثم ان الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد التي كانت من البر إلى البر ؛ قيل ان هذه السلسلة كانت في ايام المقوقس عظيم القبط ، ثم بطلت فأمر باعادتها كما كانت » [٢] .

(ب) مأصر الاسكندرية :

الاسكندرية أجل ثغور الديار المصرية وأعظمها شأناً ، فهي تطل على بحر بحر الروم ، واليها تهوي ركائب التجار في البر والبحر ، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض ، وهي فُرضة بلاد المغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام .

أما أهلها فهم على يقظة من أمور البحر والاحتراز من العدو الطارق ، ومع هذا لم تنج من هجمات العدو الذي انتابها غير مرة واجتاح أهلها ، وقَتل وسَبى ، فكان ذلك سبباً محتوماً للعمل على تحصينها منيعاً من البر والبحر ، فنُصب المأصر ذو السلاسل الحديد على فم [٣] مينائها ، ورتبت المقاتلة على أبراجه .

---

(١) القرابيص ، واحدها القرباص : بمعنى كتل الأحجار . وهي من الألفاظ الدخيلة التي تستدرك على المعجمات العربية .

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور (١ : ٨٧ ، بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

(٣) تحفة النظار (١ : ٢٨ ، طبعة باريس) .

والذي يؤسف له ان أنباء هذا المأصر ضئيلة المقدار في المراجع القديمة ، فهذا القلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ هـ) أشار إشارة خفيفة اليه في عرض كلامه على آلات الحصار ، فقال : « ... وقد رأيت بالاسكندرية في الدولة الأشرفية ، شعبان بن حسين في نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرّام رحمه الله ، مدفعاً قد صُنع من نُحاس ورصاصٍ وقيّد بأطراف الحديد ، رُمي عنه من الميدان ببندقةٍ من حديدٍ عظيمةٍ محماة ، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة »[1] .

وقد تدارك علي باشا مبارك هذا الاقتضاب في الوصف ، فأفاض في صفة الاسكندرية ، وأشار غير مرة إلى برج سلسلة المأصر في مينائها . ودونك بعض ما دوّنه . قال في أسوار مدينة الاسكندرية : « قد استدل من البحث الذي أجراه العالم الفاضل محمود بك الفلكي (المتوفى سنة ١٣٠٣هـ) على جدران السور القديم الذي كان لهذه المدينة أن عرضه كان خمسة أمتار...وقد تتبع أثره من ابتداء برج السلسلة الذي كان يُسمى قديماً (رأس لوشباس) إلى الحدرة ...، وقد ظهر أن السور من برج السلسلة إلى الميناء الغربية كان يتبع مسير الساحل ... » .

ثم قال : « ... وكان من ضمن الحارات العرضية ، شارع يخرج من برج السلسلة بسبب انه كان به سراية ملوكية ... ، إن أراضي المدينة لم تكن مستوية ، وكانت منقسمة بطبقة[2] الأرض إلى قسمين بوادٍ يختلف عرضه ... ، وابتداء الوادي المذكور من برج السلسلة ، ويمتد إلى بحيرة مريوط ... » .

ولدى كلامه على جزيرة فاروس ، قال : « كانت هذه الجزيرة في الأيام الخالية محصنة بأسوار وأبراج في دوائرها ... والشعب الممتد في البحر بين برج السلسلة والجزيرة من جهة وبين العجمي والجزيرة من الجهة الأخرى ، فدل ذلك على أن

---

(١) صبح الأعشى (٢ : ١٣٧) .

(٢) كذا ، ولعل الصواب بطبيعة .

هذه الجزيرة والشعب المذكورة أصلها من الساحل وانفصلت منه بحادثة حدثت في الأزمان العتيقة ... ».

ثم واصل كلامه على الميناء الشرقية التي يطل عليها برج السلسلة ، فقال إن « هذه الميناء هي التي مشهورة (كذا) في الأيام العتيقة ، ويسميها الاسكندرانيون الآن بالميناء الجديدة . وكان مدخلها ضيقاً وبه شعب وصخور كثيرة ، منها ما يظهر على سطح الماء ، ومنها ما هو مغطى به ، وكان في داخلها سرايات كثيرة للملوك ، بعضها مبني على الصخور الطبيعية ، وبعضها بني فوق صخور حادثة ، وكان ساحلها من ابتداء برج السلسلة إلى آخر السبع غلوات (الجسر المسمى هيبتاستاد) مزيناً بالسرايات الفاخرة والمباني البهجة . وقد عثر محمود بك أثناء بحثه عن آثار اسكندرية القديمة على بواقٍ من الجسر المذكور ، وتلك البواقي متجهة من برج السلسلة إلى جهة مدخل الميناء ويمتد إلى مائتي متر تقريباً . ويظهر أن الحفر الموجودة الآن في مدخل الميناء كانت من ضمن الجسر ، فان كان كذلك ، كان طول الجسر من ابتداء برج السلسلة نحو ٩٠٠ متر في الطول و ٦٠٠ في العرض ، ومن هذا يعلم أن الميناء كانت مقفولة من جميع الجهات ما عدا الفم الذي كانت السفن تدخل منه ، الذي هو من جهة المنار وعرضه ٦٠٠ متر . والظاهر انه كان منقسماً إلى قسمين ، أحدهما صغير وهو الذي كان من جهة المنار ، وقدره ١٠٠ متر تقريباً ، والآخر عرضه ٢٠٠ ، وكانا منفصلين بصخرة وهي الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار . وفي كتاب « ماني الفرنساوي » (ألفه سنة ١٧٣٥م وهو يبحث في مصر) ، ان الفتحة الكبرى كانت بقرب المنار وتنتهي بصخور بني فوقها قلعة ومنارتان ، والفتحة الثانية كانت بعد هذه ، وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منار ثالث انهدم ولم يبق له أثر في وقته ، وكانت المراكب تمر بين الثاني والثالث من المنارات ، ولكنه لصغره وكثرة صخوره كان لا يُستعمل إلا للمراكب الصغيرة ، والآخر هو الذي كان يكثر استعماله ، وكانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحديد .

وقد عثر محمود بك أيضاً على آثار الميناء الصغيرة التي غربي برج السلسلة ومتصلة به ... ، وظن انها الجزيرة التي كان فوقها سراية التيمنوم وكان يتوصل منها إلى البر بجسر في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات ... ، والمسافة الكائنة بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات طولها ٢٢٠٠ متر، وكان به السرايات الملوكية ومباني البحرية، وكانت احدى السرايات المسماة بالسراية البرانية محل برج السلسلة ، ولعل سبب تسميتها بذلك خروجها عن الميناء ... ، وكان بقرب السراية من جهة الشرق ما بين برج السلسلة والمسلة برج عظيم السعة ... ، والسرايات الأخر كانت بين هذه السراية وبرج السلسلة ... » .

وفي عرض كلامه على خليج الاسكندرية قال ان « هذا الخليج كان محاذياً لسور المدينة القبلي ... ، وكان على الخليج القديم ثلاث قناطر ... وكانت القناطر المذكورة على أبعادٍ متساوية، الأولى في جهة البلد ...، والثانية في مقابلة الشارع الموصل لرأس السلسلة ... »[1].

(ج) مأصر شيريا :

لم نعثر على خبر صريح يذكر وجود مأصر في هذه البليدة ، ولكن إشارة خفيفة ذكرها علي باشا مبارك أثناء كلامه على الاسكندرية ، قال ان شيديا « كانت على بُعد أربعة وعشرين فرسخاً من اسكندرية بناءً على ما ذكره استرابون وغيره، وكانت كثيرة العمران تقرب من أن تعدّ من المدن لكثرة أهلها. وكانت مركزاً لأخذ الجمرك من المراكب الحادرة والمقلعة ، ولذا قال استرابون انه كان هناك قنطرة من المراكب على النهر ، واسم القرية مستعار من اسم القنطرة ... »[2].

---

(١) خطط مصر الجديدة (٧ : ٣٥ ـ ٤٥) .

(٢) خطط مصر الجديدة (٧ : ٤٥ ـ ٤٦) .

(د) مأصر السويس :

السويس بليد متوسط ساحل بحر القُلزم، وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام ، وأخبار مأصره ضئيلة . وقد انفرد المقريزي بالتلميح إلى برجه في كلامه على حوادث سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، قال : « في (شهر) ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تنيس ، وأخذوا مركباً للتجار ، ووصلت مراكب من دمياط كانت قد استدعيت من خمسين مركباً لتكون في ساحل مصر. وكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً، ورُتّب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التي يجلب منها الشبّ إلى بلاد الفرنج ، وأمر بعمارة قلعة تنيس ... »(١).

أفكان هذا البرج من الأبراج البرية التي تُشاد لحفظ الطرق وتأمينها من غائلة العدو ، أم من أبراج المآصر البحرية التي مر بنا خبرها في تضاعيف بحثنا ؟.

مأصر أُشمون :

أُشمون ، وقيل فيها « الأشمونين » ، وصفها البلدانيون بكونها مدينة قديمة أزلية ، عامرة ، آهلة . وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ، ذات بساتين ونخل كثير . زارها « ابن بطوطة » في حدود سنة ٨٢٥ هـ (١٣٢٥ م) ، وشاهد فيها شيئاً قد يكون مأصراً ، أو ما يشبه المأصر . قال : « ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان ، ونسبت إلى الرمان لكثرته بها ،.. وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل ، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة »(٢).

---

(١) السلوك (١ : ٧٢).

(٢) تحفة النظار (١ : ٦٦ ، طبع باريس).

فلعل قنطرة الخشب هذه كانت كالمأصر لهذه المدينة ، يجري فيها التفتيش على المراكب الراسية ، وأخذ العشور والضرائب (١) من أصحابها .

(و) مأصر القاهرة :

أشرنا غير مرة في ما مضى من بحثنا هذا ، إلى ان المآصر النهرية والبحرية والبرية ، اتخذت لصد أخطار الغزو الذي يقع بين حين وآخر على البلاد ، ولتنظيم سبل التجارة ، وتسهيل أمر استيفاء الضرائب والعشور . ولكنها هاهنا في القاهرة لم تتخذ لهذه الأغراض، بل نصبت لأمرٍ فريد غريب انفردت به دون ما سواها من المدن الراكبة سواحل البحار الملحة ، وضفاف الانهار . وسأقص عليك من أخبار هذا المأصر الفريد ما وقفت عليه من الانباء .

إن من جملة الخلجان الخمسة التي بظاهر القاهرة، خليجاً (٢) يعرف بـ « خليج فم الخور » (٣) . قال المقريزي انه « يخرج الآن من بحر النيل ويصب في الخليج الناصري ليقوي جري الماء فيه ويغزره ، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصري

---

(١) عن الضرائب والعشور بمصر ، أنظر : « الذيل السادس » .

(٢) الخليج ، على ما في تاج العروس : نهر في شق من النهر الأعظم، وجناحا النهر خليجاه . وأنشد :

الى فتى فاض أكف الفتيان فيض الخليج مده خليجان

وفي الحديث ، أن فلاناً ساق خليجاً ، الخليج نهر يقتطع من النهر الأعظم الى موضع ينتفع به فيه . والخليج شرم من البحر . وقال ابن سيده : هو ما انقطع من معظم الماء لأنه يجبذ منه وقد اختلج . وقيل الخليج شعبة تشعب من الوادي والجمع خلج وخلجان .

(٣) قال في التاج (٣ : ١٩٢ ، مادة : خ ا ر) : « الخور مثل الغور المنخفض المطمئن من الأرض بين النشزين . والخور : الخليج من البحر ، وقيل مصب الماء في البحر ، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر اذا اتسع وعرض . وقال شمر : الخور عنق من البحر يدخل في الأرض ، والجمع خؤور . قال العجاج يصف السفينة :

اذا انتحى بجؤجؤ مسمور وتارة ينقض في الخؤور تقفي البازي من الصقور » .

بعد خليج الذكر ... »[١].

وكان هذا الخليج من متنزهات أهل القاهرة ، وأحد مواطن اللهو والتية ، يعبرون فيه بالمراكب للتنزه ، وكان اكثر رواده من أهل القصف والبطالة ، « فظهر من المنكرات مالم يعهد في مصر في وقت من الاوقات ... فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النسآء الفواجر وبأيديهن المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهن ، ووجوههن مكشوفة ، وحرفاؤهن من الرجال معهن في المراكب لا يمنعون عنهن الايدي ولا الابصار، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الانكار، وتوقع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة »[٢].

وكان على خليج فم الخور قنطرة واحدة هي المسماة بِـ« قنطرة المقسي[٣] ». قال المقريزي ، ان قنطرة المقسي هذه « على خليج فم الخور وهو الذي يخرج من بحر النيل ويلتقي مع الخليج الناصري عند الدكة فيصيران خليجاً واحداً يصب في الخليج الكبير . كان موضعها جسراً يستند عليه الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربع عشرة ذراعاً فيفتح ويمر الماء فيه إلى الخليج الناصري وبركة الرطلي[٤] » ... وما زال موضع هذه القنطرة سداً إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبدالله المقسي في أيام السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضاً بجانبي هذا الخليج من حيث يبتدىء إلى أن يلتقي مع الخليج الناصري ، ثم خرب

---

(١) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٥) .

(٢) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٣) .

(٣) أنظر كلاماً مفصلاً على المقسي ، في خطط المقريزي (٢ : ٢٠٨ - ٢٠٩ ، و ٣ : ١٩٦ - ٢٠٢ ، و ٤ : ٦٥ - ٦٦) .

(٤) أنظر بركة الرطلي في خطط المقريزي (٣ : ٢٦٣ - ٢٦٤) ، وفي بدائع الزهور (١ : ١٦٣ - ١٦٤) .

اكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة (١٤٠٣ م) . وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصرى في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحد بكثرة التهتك والتمتع بكل ما يلهي ، إلى أن ولي أمر الدولة بعد قتل الملك الاشرف شعبان بن حسين ، الاميران : برقوق وبركة ، فقام الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر بمنع المراكب من المرور بالمتفرجين في الخليج ، واستفتى شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك في المراكب من الحرمات ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات ، فبرز مرسوم الاميرين المذكورين بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسي هذه في شهر ربيع الاول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة (١٣٧٩ م) ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلا أن يكون فيها غلة أو متاع ، فقلق الناس لذلك وشقّ عليهم . وقال الشهاب أحمد بن العطار الدنيسري في ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه   بقنطرة المقسي قد سار في الخلق
ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل   يقول لقد أوقفتم الماء في حلقي

وقال :

تسلسلت[1] قنطرة المقسي مـــا قد جرى والمنع أضحى شاملا
وقال أهل طبنة في مجنهم   قوموا بنا نقطع السلاســلا

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٨ م) ، فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا »[2].

وقد تطرّق السيوطي إلى هذه السلسلة حينما ساق الحوادث الغريبة الكائنة

---

(١) في المطبوع « تسلست » ، وهو تحريف ظاهر .
(٢) خطط المقريزي (٣ : ٢٤٤ ـ ٢٤٥) .

بمصر في ملة الاسلام ، فقال : « في سنة إحدى وثمانين (وسبعمائة) ، رسم الامير بركة ... بأن يُعمل على قنطرة فم الخور سلسلة تمنع المراكب من الدخول وإلى بركة الرطلي . فقال بعض الشعراء في ذلك :

أطلقتُ دمعي على خليج — مذ سلسلوه فراح مقفل

من رام من دهرنا عجيباً — فلينظر المطلق المسلسل [1]

وفي أيام ازدهار هذا الخليج وارتياده من أهل الخلاعة والقصف وذوي الآداب والظرف، عُمّرت البقاع المطلة عليه، فأنشأ الناس « بها دياراً جليلة تناهى أربابها في إحكام بنائها ، وتحسين سقوفها ، وبالغوا في زخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بها الاشجار ، وأجروا اليها المياه من الآبار ، فكانت تعد من المساكن البديعة النزهة ، فكم حوت تلك الديار ، من حسن ومستحسن » . قال من شاهدها : « ما مررت بها قط إلا وتبين لي من كل دارٍ هناك آثار النعم ، إما روائح تقالي المطابخ ، أو عبير بخور العود والند ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دق هاون ونحو ذلك ، مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم . ثم هي الآن موحشة خراب ، قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة (١٤٠٣ م)، فزالت الطرق وجهلت الازقة » ، تلك هي العاقبة . « وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » [2] .

---

(١) حسن المحاضرة (٢ : ١٦٣ ، المطبعة الشرفية = ٢ : ١٨٢ ، مطبعة الموسوعات بمصر ، سنة ١٣٢١ ه) .

(٢) سورة الاسراء (١٧ : ١٥) .

الفصل الرابع

مأصر باب الأبواب

اشتهرت باب الابواب بمأصرها البحري الذي فاقت به ما سواها من المدن ذات المآصر . فمما دونه الاصطخري في هذا السبيل قوله : « وأما باب الابواب فانها مدينة على البحر وفي وسطها مرسى للسفن ، وبين هذا المرسى وبين البحر قد بُني على حافتي البحر سدّان حتى ضاق مدخل السفن وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة لا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر ، وهذان السدّان من صخر ورصاص . وباب الأبواب على بحر طبرستان ... »[1].

ولا نعدو وجه الصواب إذا ما قلنا إن الرحالة ابن حوقل، خير من دوّن خبر هذه المآصر البحرية وإذا شئت الايضاح عما نقول، فانظر وصفه لها : « ومدينة باب الأبواب ، مدينة على بحر الخزر ، في وسطها مرسى للسفن ، وفي هذا المرسى الخارج من البحر اليها بناء قد بُني كالسد بين جبلين مطلّين على ماء هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر . وفي هذا السد باب مغلق على الماء قد استحكم من وصيده بعقد قد عقد على نفس الماء ، والماء من تحته ، وللسفن مدخل مقلوب من ناحية بابه ، وعلى فم المدخل الذي تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة كالتي بصور وبيروت بالشام وعلى خليج القسطنطينية ، وعليها قفل لمن ينظر في أمر البحر ، فلا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر صاحب القفل . والسد من صخر ورصاص »[2].

ومن تصدى لذكرها أيضاً البشاري المقدسي ، القائل ان « من العجائب :

---

(١) مسالك الممالك (ص ١٨٤) . وللتوسع أنظر : الخراج لقدامة بن جعفر (ص ٢٥٩-٢٦١) ، وتحفة الامراء في تاريخ الوزراء (ص ٢١٧ - ٢١٨) .

(٢) صورة الأرض (ص ٣٣٩) .

الباب ، وهو حصن على ما ذكرنا من صُور وعكة بسلسلة قد بني من الصخر ، وجعل ملاطه الرصاص ... »[١].

ثم قال في صفة باب الأبواب انها : « على بحر الخزر (محصّنة في الحائط الذي من قبل الخزر ، لها ثلاثة أبواب : باب الكبير ، وباب الصغير ، وباب آخر نحو البحر مسدود لا يفتح ، وعدة أبواب من قبل البحر وقبل الاسلام ، والحائط قد مدّ من الجبل إلى وسط البحيرة عليه أبرجة ... »[٢].

ولم يفت الشريف الادريسي البلداني الشهير (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ) وصف هذه المدينة وميناءها ذي السلسلة العجيبة، بقوله إنها «مدينة عظيمة على بحر الخزر، وفي وسطها مرسى للسفن ، وعلى فم هذا المرسى الخارج اليها بناءان كالسدّين من جانبيه ، وهناك سلسلة تمنع الداخل والخارج ، إلا بأمر من صاحب البحر، وهذان السدّان من الصخر المحكم أفرغ بينه الرصاص .. »[٣].

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل لنا صفتها بلداني آخر ، نعني به صفي الدين بن عبدالحق (المتوفى سنة ٧٣٩ هـ)، ويلوح لنا أنه أخذ هذا الوصف عن ياقوت[٤]، ذاك الذي استند إلى وصف الاصطخري الآنف الذكر لسلسلة باب الأبواب .

قال ابن عبدالحق : وباب الأبواب مدينة على البحر ، بحر طبرستان وهو بحر الخزر ، ربما أصاب البحر حائطها ، وفي وسطها مرسى السفن ، قد بُني على حافتي البحر سدان، وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ، فلا مخرج للسفينة ولا مدخل إلا بأمر ... »[٥].

---

(١) أحسن التقاسيم (ص ٣٨٠) .

(٢) أحسن التقاسيم (ص ٣٧٦) .

(٣) مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (ص ٢٨٤ ، طبع رومة سنة ١٥٩٢ م) .

(٤) معجم البلدان (١ : ٤٣٧) .

(٥) مراصد الاطلاع (١ : ١١١) .

وبعده بمدة يسيرة ، أشار اليها سراج الدين عمر بن الوردي (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) ، بقوله : « أما الباب فبناها أنوشروان على بحر الخزر ... ، وبها مرسى الخزر وغيره ، وعليه سلسلة تمنع الداخل والخارج »[١] .

الفصل الخامس

مأصر المهدية

المهدية هذه هي التي بأفريقية ، بينها وبين القيروان مرحلتان من جنوبها . قال بطلميوس : مدينة برقة وهي المهدية . أما مأصرها فقد وصفه ياقوت بما هذا نصه : « ... قال (أبو عبيد البكري) : ومرسى المهدية منقور في حجر صلد ، يسع ثلاثين مركباً . على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، فاذا أُريد إدخال سفينة ، أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم يمدونها كما كانت تحبيساً لها ... »[٢] .

ونظير هذا القول ما حكاه القزويني في صفة المهدية وميناءها والسلسلة الراكبة عليه ، غير انه ذكر عدداً آخر للسفن التي يسعها هذا الميناء ، واليك قوله : « ... ومرساها منقورة في حجر صلد يسع مايتي مركباً (كذا) ، وعلى طرف المرسى برجان بينهما سلسلة حديد ، إذا أُريد إدخال سفينة أرسل الحراس أحد طرفي السلسلة لتدخل الخارجة ثم يمدها ... »[٣] .

---o---

(١) خريدة العجائب وفريدة الغرائب (ص ٩١ ، طبع مطبعة شاهين بمصر ، سنة ١٢٨٠هـ = ص ٤٧ ، طبع مطبعة عبد الرازق بمصر ١٣٠٣ هـ).

(٢) معجم البلدان (٤ : ٦٩٥ ـ ٦٩٦) .

(٣) آثار البلاد (ص ١٨٣ ـ ١٨٤) .

ذيول البحث

الذيل (الأول)

« القلوس »

(راجع : الصفحة ١١ الحاشية ٢)

القلوس ، واحدها القلس . وهو على ما في تاج العروس (مادة : ق ل س) : حبل ضخم من ليف أو خوص . قال ابن دريد : « فأما القلس الذي يتكلم به أهل العراق من هذه الحبال ، لا أدري ما صحته ، أو هو حبل غليظ من غيرها من قلوس سفن البحر ، ولو قال من قلوس السفن كان أصاب في حسن الاختصار ، فان السفن لا تكون إلا في البحر . ويروى أيضاً القلس بالكسر ، وهكذا ضبطه ابن القطاع ... ، يقال قلس السفينه يقلسها إذا ربطها بالقلس ... »[١] .

وتستخدم القلوس لأغراض شتى ، منها لتثبيت الجسور . قال هلال الصابىء : « نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنها والقلوس وأرزاق الجسارين من جملة ثلثمائة دينار في الشهر عشرة دنانير »[٢] .

ويتخذه الملاحون لسفنهم النهرية كما ذكر ذلك القاضي التنوخي ، في معرض كلامه على أخبار جحظة البرمكي . قال : « ... قال : وأخبرني أنه كان معه في حديدي[٣] لابن الحواري ، وقد حملهم إلى بلا شكر ليتفرجوا ، والحديدي يمده الملاحون بالقلوس »[٤] .

واتخذت القلوس لبعض الأغراض في إقامة الأفراح ، من ذلك ما ذكره

---

(١) الجمهرة (٣ : ٤٢ ، طبعة حيدر آباد) .
(٢) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (ص ٢١) .
(٣) الحديدي : ضرب من السفن في العصر العباسي .
(٤) نشوار المحاضرة (١ : ٢٠٦) .

صاحب التكملة في حوادث سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م). قال : « وعمل (أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي) ، دعوةً لمعز الدولة ... ، وقطع دجلة من فوق الجسر ، إلى دار الخلافة بالقلوس الفلاظ ، وطرح الورد فيها حتى ملأها وغطا (كذا) دجلة ... »[١].

وللمحاسن أضداد ، فقد اتخذت القلوس للضرب والتعذيب والقصاص . فمن جملة أخبارها في هذا الصدد ما حكاه المسعودي : « ... فضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرّة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله ، حتى لم يكن فيه للضرب موضع ، وبلغ به ذلك إلى حالة لا يعقل ولا ينطق ... »[٢].

وكذلك ما ذكره مسكويه وهلال الصابئ في عرض كلامهما على ابن الفرات ، قالا « ... فأوقع نازوك المكاره بالمحسن حتى تدوّد بدنه ، ولم يبق فيه فضل لضرب ، وضرب ابن الفرات ثلاث دفعات بالقلوس فلم يعط شيئاً ... »[٣].

* * *

الذيل (الثاني)

« من أخبار (البرجمي) العيار »

(راجع : الصفحة ١٤ الحاشية ١)

قال ابن الجوزي : « وقوي أمر العيارين وكبس رئيسهم البرجمي خاناً فأخذ ما فيه ، فقوتل فقتل جماعة ، وكان يأخذ كل مصعد ومنحدر ، وكبس داراً بسوق يحي وأخذ ما فيها وأحرقها ، هذا والعسكر ببغداد »[٤].

---

(١) تجارب الأمم (٦ : ٢٦٩ ، حاشية ١) .
(٢) مروج الذهب (٨ : ١٥٤) .
(٣) تجارب الأمم (٥ : ١٣٦ ، حوادث سنة ٣١٢ هـ) وتحفة الأمراء (ص ٥٩) .
(٤) المنتظم (٨ : ٦٦ ، حوادث سنة ٤٢٣ هـ) .

ثم قال : « وفي ليلة الأحد سادس عشر (شهر) رمضان ، أُغرق البرجمي اللص بفم الدجيل ، أخذه معتمد الدولة فغرقه بعد أن بذل مالاً كثيراً على أن يترك فلم يقبل منه ، ثم دخل أخو البرجمي إلى بغداد فأخذ اختاً له من سوق يحيي وخرج فتبع وقتل »[١].

ونسج البرجمي هذا في استيفاء المبالغ من الضرائب والمآصر ونحوهما ، على منوال سلفه العيار المعروف بـ « عزيز » ، الذي قوي أمره واستفحل في سنة ٣٨٤ هـ (٩٤٤ م) ، وكان من أهل باب البصرة من الجانب الغربي من بغداد « فالتحق به كثير من الذعّار وطرح النار في المحال ، وطلب أصحاب الشرط ، ثم صالح أهل الكرخ ، وقصد سوق التمّارين وطالب بضرائب الأمتعة ، وجبي ارتفاع الأسواق الباقية ، وكاشف السلطان وأصحابه ونادى فيهم ، وكان ينزل إلى السفن فيطالب بالضرائب وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر ... »[٢].

* * *

الذيل (الثالث)

« قطيعة الرقيق »

(راجع : الصفحة ١٤ الحاشية ٢)

ما في النسخة المطبوعة من المنتظم : « دار الدقيق » بالدال المهملة ، وهو تحريف ظاهر . وقد ورد بهذه الصورة غير مرة فيه ، ولم ينبه اليه الناشر . وقد طلبتُ إلى البحاثة الدكتور مصطفى جواد ، أن يعيّن موقع كل من قطيعة الرقيق هذه ، والنجمي ـ الآتي ذكرها ـ بالنسبة إلى بغداد الحالية ، لنستشف من

---

(١) المنتظم (٨ : ٧٩ ، حوادث سنة ٤٢٥ هـ) . ولتتبع أخباره ، أنظر المنتظم (٨ : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٢ وما يليها) .

(٢) المنتظم (٨ : ١٧٤) .

خلالها محل المأصر الأعلى ، فتفضل بالمعلومات التالية :

« قطيعة الرقيق ، وقطيعة أم جعفر ، وزبيدية بغداد : أسماء ثلاثة لقطيعة واحدة، والظاهر من أخبار خطط بغداد انها الأراضي التي شيّـد فيها قبل بعض السنوات حوض ماء الجانب الغربي ببغداد فوق « المنطقة » ، وكانت تنتهي من أعلاها بالموضع المعروف اليوم بالبحيّـة (البوحية) من شرقي الكاظمية الشمالي ، وكان فيها القافلائيون ـ وهم كما في أنساب السمعاني ، الذين يشترون السفن الكبار المنحدرة من الموصل والمصعدة من البصرة ويكسرونها ويبيعون خشبها وقيرها وقفلها أي حديدها ـ ، فالشط الغربي المنصوب فيه الجسر في عهدنا بين الكاظمية والأعظمية كانت أرضه من قطيعة الرقيق . وقد قالوا (دار الرقيق) و (سوق الرقيق) » اه .

قلت : وراجع معلومات اخرى عن قطيعة الرقيق في المراجع المذكورة في الحاشية أدناه[1] :

* * *

الذيل (الرابع)

« النجمي »

(راجع : الصفحة ١٤ الحاشية ٥)

قال الدكتور مصطفى جواد : « النجمي الذي كان بالجانب الغربي من بغداد كان مقابلاً لدار الخلافة الحديثة المعتضدية التي كانت على دجلة بين مشرعة

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخي (١ : ١٤٧ و ٢ : ١٠٢ ، مطبعة الهلال) ، الكامل في التاريخ (١١ : ٢٩) ، المنتظم (٦ : ٢٨٣ و ٧ : ٢١٩ ، ٢٥١ ـ ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ و ٨ : ٤ ، ٩٢ ، ١٤٦ ، ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ ، ٣١٣ و ٩ : ٢١٦ و ١٠ : ١٠٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ٢٩٦) ، معجم البلدان (٢ : ٥١٩ ، مادة «دار الرقيق») و (٤ : ١٤١ ، «قطيعة أم جعفر») و (٤ : ١٤١ـ١٤٢ ، «قطيعة الرقيق ») و(٢ : ٩١٧ ، «الزبيدية») ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (ص ٢٤٢ ، حوادث سنة ٦٨٣هـ ، باعتناء مصطفى جواد . بغداد) .

المصبغة الحالية إلى ما ورآء جسر بغداد الأسفل (جسر الملك فيصل) . قال أبو المظفر يوسف بن قز اغلي المعروف بسبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م (مرآة الزمان، مخطوط رقمه ١٥٠٦، عربي، ورقة ٤٧ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس) نقلاً عن تاريخ محمد بن هلال الصابیء، ما نصه :

« وبعث رئيس الرؤساء (أبو القاسم علي بن الحسن بن المسلمة) إلى أبي الأغر دبيس يستحثه في القدوم إلى بغداد خوفاً من البساسيري ، فقدم يوم الاثنين ثاني ذي القعدة في مائة فارس ، فنزل النجمي مقابل دار الخليفة ، واستأذن في ضرب الطبل على باب خيمته في أوقات الصلوات ، فأذن له في بعضها » .

« وهذا دليل صريح على كون النجمي مقابلاً لدار الخلافة (يفصل بينهما دجلة) . ولنا دليل ضمني على انه كان مقابلاً لقصر التاج من دار الخلافة . وكان هذا في الموضع الذي بُنيت فيه المحكمة الشرعية وما جاورها من العمارات (قبل بعض السنوات)، فقد ذكر سبط ابن الجوزي أيضاً في حوادث سنة ٤٤٩هـ = ١٠٥٧م (مرآة الزمان، المخطوط، ورقة ٢٢) ان أبا الغنائم سعد بن أبي الفرج محمد بن فسانجس داعية المستنصر الفاطمي المستولي على واسط الخاطب له فيها، كان أصحاب طغرل بك قد أسروه في هذه السنة وطافوا به على أقبح حال ، وعليه قميص أحمر وطرطور أحمر وقلادة ودع ، فلما بلغ المطوف به النجمي حُط من فوق الجمل ونصبت له خشبة فصلب عليها وشدت رجلاه إلى رأسه ، ثم قطع رأسه ورميت جثته للكلاب فأكلتها » .

« وقد ترجمه جمال الدين ابن الجوزي في وفيات سنة ٤٤٩هـ ، فذكر[1] انه صُلب بازاء التاج . وبذلك نحكم بأن التاج كان مقابلاً للنجمي » اهـ .

قلنا : وعليه يكون المأصر الأعلى في أعلى الجانب الغربي من بغداد ، والنجمي في أسفل هذا الجانب . فغلام عميد الجيوش طاف المدينة من أعلاها

(١) المنتظم (٨ : ١٨٩) .

إلى أسفلها ، وهو ما يوافق قول ابن كثير في هذا الخبر : « ... وأمر بعض غلمانه أن يحمل صينية فيها دراهم مكشوفة من أول بغداد إلى آخرها ... »[١] .

وقد نبّـه مسكويه إلى محل النجمي يوم ذاك . فقال في أحداث سنة ٣٦٩ هـ (=٩٧٩م): «... وخرج الطائع لله في تلقيه (لتلقي عضد الدولة) مع جماعة من الجيش والمقيمين وسائر الخواص والعوام ، ودخل يوم الأحد لليلة خلت من ذي الحجة، واجتاز في الجانب الغربي على تعبية من الجيش ، وبعـد أن ضُربت له القباب متصلة منتظمة بين عسكره من باب حرب وبين الموضع الذي ينزله من آخر البلد ، وهو البستان المعروف بالنجمي ، وعبر في يوم الاثنين له إلى داره فاستقر فيها »[٢] .

وإذا طلبت مزيداً في أخبار النجمي ، فانظر المراجع المذكورة في الحاشية أدناه[٣] .

* * *

الذيل (الخامس)

« غزو المسلمين لبلاد الفرنج »

(راجع : الصفحة ٢٦ الحاشية ٢)

لاشك ان السلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول خليج القسطنطينية، خشية وقوع الغزو على هذه المدينة وأطرافها، فقد ذكر قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (المتوفى سنة ٣١٠ أو ٣٢٠، وقيل ٣٣٧ هـ)، نظير ذلك في كتاب الخراج ما مؤداه: « ... ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشامية ما يجتمع إليها من

---

(١) البداية والنهاية (١١ : ٣٤٤) .

(٢) تجارب الأمم (٦ : ٣٩٦) .

(٣) صلة تاريخ الطبري (ص ١٦٧ ، ليدن) ، الأوراق – أخبار الراضي والمتقي – (ص ١٤٤) ، المنتظم (٧ : ٢٢٣ و ٨ : ٢٥٣ ، ٢٩٤) ، معجم البلدان (١ : ٤٦٠ ، مادة « بادوريا ») ، الكامل في التاريخ (٨ : ١٣٧ حوادث سنة ٣١٦هـ) .

مراكب الشام ومصر ، من الثمانين إلى المائة . والغزاة إذا عزموا عليها في البحر كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له ... ويسمى ما يجتمع منها الاسطول ... ، والمدبّر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية ، صاحب الثغور الشامية[١] ، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار »[٢].

وقد نقل الينا كل من المقريزي والقلقشندي[٣] ، وصفاً رائعاً لتجهيز الاساطيل الاسلامية لغزو الفرنج . قال المقريزي : « كان من جملة مناظرهم (مناظر الخلفاء الفاطميين) أيضاً منظرة بجوار جامع المقس الذي تسميه العامة اليوم جامع المقسي ، وكانت هذه المنظرة بَحريّ الجامع المذكور ، وهي مطلة على النيل الأعظم ... ، وكانت هذه المنظرة معدّة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول إلى غزو الفرنج ، فتحضر رؤساء المراكب بالشَـواني[٤] وهي مزينة بأنواع العدد والسلاح ويلعبون بها في النيل حيث الآن الخليج الناصري تجاه الجامع وما وراء الخليج من غربيه . قال ابن المأمون : وذكر تجهيز العساكر في البر عند ورود كتب صاحـبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمسمائة (١١٢٣ م) ما يحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك ، وركب الخليفة الآمر بأحكام الله وتوجه إلى الجامع بالمقس ، وجلس بالمنظرة في أعلاه ، واستدعى مقدم الاسطول الثاني وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة ، واعتمد ما جرت العادة به من الانعام عليهم ، وعاد الخليفة إلى البستان ... ، وقال ابن الطوير : فاذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب

(١) ممن اشتهر من أصحاب الثغور الشامية ، أبو عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي الأزدي . قال المسعودي ، وكان معاصراً له : « هو شيخ الثغور الشامية قديماً وحديثاً الى وقتنا هذا ، وهو من أهل التحصيل » : (مروج الذهب ٢ : ٣١٦-٣١٨) .

(٢) الخراج (ص ٢٥٥ ، وانظر ص ٢٥٩ ، طبعة دي غويه . ليدن سنة ١٨٩٢) .

(٣) صبح الأعشى (٣ : ٥٢٣ - ٥٢٤) .

(٤) الشواني ، واحدها الشونة ، وقيل فيها الشون والشيني : ضرب من مراكب البحر الكبيرة ، كانت تتخذ في الحرب وفي التجارة .

الخليفة والوزير إلى ساحل المقس ، وكان هناك على شاطىء البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه ، يعني الاسطول ، ولقائه إذا عاد . فاذا جلس هو والوزير للوداع ، جاءت القواد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزينة بأسلحتها ولبوسها ، وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح ، ويحضر بين يدي الخليفة المقدّم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطي المقدم مائة دينار ، والرئيس عشرين ديناراً ، وتنحدر إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة ، فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح ، وما عدا ذلك فللأسطول . واتفق مرة أن قدم على الاسطول سيف الملك الجمل ، فكسب بُطسة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال وقتل منهم نحواً من مائة وعشرين رجلاً ، وحضر إلى القاهرة ففرح الخليفة وركب إلى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم ، وأطلقوا الاسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر ... ، وقد خربت هذه المنظرة وكان موضعها برج كبير ، صار يُعرف في الدولة الأيوبية بقلعة المقس ، مشرف على النيل ... »[1] .

* * *

الذيل (السادس)

« الضرائب والعشور بمصر »

(راجع : الصفحة ٥٣ الحاشية ١)

كان الاهتمام بأمر الثغور المصرية على مدى السنين عظيماً ، يأتي في طليعة الأعمال الرئيسة . وقد وقفنا على تقليد للخليفة إلى السلطان من إنشاء فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الانشاء بمصر ، في حدود سنة تسع وخمسين وستمائة

---

(١) الخطط (٢ : ٣٦٨ - ٣٦٩) .

(١٢٦٠ م) ، يقول له فيه : « ... واجعل أمرها (أمر الثغور) على الامور مقدماً، وشيّد منها كل ما غادره العدو منهدماً ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً والعدو له ملتفتاً ناظراً ، لا سيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل اليها رابحاً وراح خاسراً ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً »[١] .

وهنالك عامل آخر غير صد الغزاة والطامعين ، هو استيفاء الضرائب والعشور ، وهي من الاسس التي تنهض بثروة البلاد . وقد كانت المآصر بمصر تعين الضرائبيين على اتمام عملهم على الوجه الحسن . وذكر البشاري المقدسي ، ان الضرائب بمصر كانت ثقيلة خاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، فقد كان « يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . رأيت بساحل تنيس ضرائبياً جالساً قيل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية أيضاً على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويُؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم »[٢] .

ولنا شاهد حسن فيما يرويه الرحالة ابن جبير ، الذي وصل ثغر الاسكندرية في يوم السبت ثاني ذي الحجة من سنة ٥٧٨ للهجرة (٣٠ آذار ١١٨٣ م) ، قال: « ... فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا ، أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما

---

(١) السلوك للمقريزي (١ : ٤٥٦ - ٤٥٧) . وراجع بهذا الصدد : مقدمة ابن خلدون (٢ : ٣٢ - ٤٠ ، طبع باريس) ، وصبح الأعشى (٣ : ٥٢٣ - ٥٢٤) .

(٢) أحسن التقاسيم (ص ٢١٣) .

لديه من سلع أو ناض[١] ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل »[٢] .

* * *

الذيل (السابع)

(نصوص من كتاب « الأموال »)

(راجع : الصحائف ١١ ـ ١٣ و ١٦ ـ ١٧)

في الفصل الذي عقده أبو عبيد القاسم بن سلّام (المتوفى سنه ٢٢٤ هـ = ٨٣٨ م) ، بعنوان « العاشر وصاحب المكس ، وما فيه من الشدة والتغليظ »[٣] ، كلام على « السلسلة » ، نورد منه فيما يأتي ، ما يتعلق بموضوع كتابنا هذا ، قال :

« حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شَقيق عن مسروق ، انه قال : والله ما عملت عُملاً أخوف عندي أن يُدخلني النار من عملكم هذا . وما بي أن أكون ظلمت فيه مسلماً ، ولا معاهداً ديناراً ، ولا درهماً . ولكني لا أدري ما هذا (الحبل) الذي لم يسنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر . قالوا : فما حملك على ان دخلت فيه ؟ قال : لم يدعني زياد ولا شُريح ، ولا الشيطان ، حتى دخلت فيه » .

قال أبو عبيد : قوله « (لا أدري ما هذا الحبل الذي لم يَسنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، ولا عمر) . وكان حبلاً يعترض به النهر ، يمنع السفن من المضي حتى تؤخذ منهم الصدقة ، فأنكر مسروق أن تؤخذ منهم على استكراه » .

« حدثنا عباد بن عباد عن عاصم الأحول عن الشعبي ، قال : استعمل زياد مسروقاً على السلسلة ، فانطلق فمات بها . فقيل له : كيف خرج من عمله ؟ فقال :

---

(١) الناض : الدرهم والدينار .

(٢) رحلة ابن جبير (ص ٣٥ ، طبعة رايت = ص ٣٩ ـ ٤٠ ، طبعة دي غويه) .

(٣) كتاب الأموال (ص ٥٢٦ ـ ٥٤٠ ، بتحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة ١٣٥٣هـ) .

ألم تروا إلى الثوب يُبعث به إلى القصار فيجيد غسله ؟ فكذلك خرج من عمله » .

« حدثنا أبو النضر عن شُعبة عن أبي اسحاق ، قال : سمعت أبا وائل يقول: كنت مع مسروق بالسلسلة . فما رأيت أميراً قط كان أعف منه . ما كان يصيب شيئاً إلا ماء دجلة » .

« قال أبو عبيد : وقد اختلف الناس في الاحلاف قديماً . فحدثني أحمد بن عثمان عن عبدالله بن المبارك عن قرة بن خالد عن رجل من بني ضَبّـة ، قال : مررت بحميد بن عبد الرحمن الحميري ، وهو على السلسلة ـ وذلك في (شهر) رمضان ـ فأمر بسفينتي فحبست ، ثم استحلفني انه ما في سفينتي إلا ما سُميتُ من الطعام » .

« حدثني يحيي بن سعيد عن أبي بكر السراج ، قال : حدثني أبو وائل ، قال : مررت بعبد الله بن معقل بالسلسلة ، وهو على العشور بالقنطرة ، يحلّف الناس ، فقلت : يا ابن معقل ، لم تحلّف الناس ؟ تلقيهم في النار ، هلكتَ وأهلكتَ . فقال : إن لم أفعل لم يعطوني شيئاً . فقلت : وما عليك ؟ خذ ما أعطوك » .

* * *

الذيل (الثامن)

(الكسرة هي المأصر النهري في العراق)

(في المائة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة للميلاد)

نَقل لي رجل ثقة من أهالي « العمارة » ، أخباراً تتعلق بالمآصر النهرية في جنوبي العراق في السنين المتأخرة . قال ما ملخصه :

(١) الشيخ « ثُويني[١] » : عاش قبل نحو (٢٠٠ سنة) ، وكانت منازله

---

(١) من عشيرة آل صبيح (قبائل ربيعة) .

يومئذٍ فوق بلدة « العمارة »[١] الحالية ، بينها وبين الكميت . وعُرفت أراضيه هناك باسم « الجمزة » .

(٢) الشيخ « گوز »[٢] : عاش أيضاً قبل نحو (٢٠٠ سنة) . كانت منازله تقابل الكميت الحالية .

(٣) الشيخ « مُشتت »[٣] : كان حياً قبل نحو (١٢٠ سنة) ، كانت منازله في صدر نهر « أبو ديس » ، أسفل « قلعة[٤] صالح » الحالية ، في مكان يسمى « الجمشة » .

(٤) الشيخ « مذكور »[٥] : عاش قبل نحو (٨٠ سنة) .

كان هؤلاء الشيوخ الأربعة من الرؤساء والصدور الأجلاء في زمانهم ، ذوي بأس وسطوة ، استوثقوا من دجلة ، بين « عليّ الغربي » حتى مسافة طويلة إلى الجنوب[٦] .

فكان واحدهم يعمد إلى قطع دجلة بقلوس ، ثبت طرف القلس في ناحية من منزله ، وطرفه الآخر في وتد على الضفة المقابلة .

وكان لكل شيخ نفر من أصحابه ممن اشتهر بالفطنة والقوة والقسوة ، يعمل على أخذ الألطاف والهدايا ، أو استيفاء الضرائب ، عرفنا منهم المسمى « سرّاي » من جملة رجال الشيخ « مذكور » .

---

(١) و (٤) لقد مر على البدء بانشاء بلدة « العمارة » ٩٠ سنة هجرية ، ومر على قصبة « قلعة صالح » ١٠٠ سنة هجرية أنظر : موجز تاريخ عشائر العمارة ، لمحمد الباقر الجلالي (ص ٤٣ و ٥٣ ، بغداد ١٩٤٧) .

(٢) ومن ذريته آل بوادي .

(٣) مشتت بن خليفة بن داغر بن صبر ، الرئيس العام لعشيرة ألبو محمد .

(٥) هو مذكور الثاني ، والد الشيخ « مزبان » ، وهذا والد الشيخ « شبيب » شيخ بني لام .

(٦) هذا القسم من دجلة ، من الكوت حتى القرنة ، يسميه أهل تلك الأطراف بـ « شط العمارة » .

وكانت السفن الصاعدة أو المنحدرة ، تجتمع إلى بعضها حتى تبلغ عشرين سفينة[١] ، فتسير في دجلة حتى تمر بالقلوس ، فتقف عندها ، فيقدّم أصحابها إلى الشيخ ما تيسر لهم من ألطاف أو طعام أو قماش ونحو ذلك ، إن كان هؤلاء من الرجال الأقوياء الأشداء ، أما الضعفاء منهم ، فكانوا بين ارغاب وارهاب ووعدٍ ووعيد حتى تؤخذ منهم ضرائب[٢] ثقيلة .

وقد عُرف هذا الأمر في تلك الجهات بـ « الكَـسرَة » وضُرب بها المثل، عند قولهم في رجلٍ ذي نفوذ كبير : « كأنّ فلان عبّـر كسرة إلى العمارة » ، أي انه استطاع أن يخترق حصار قلوس المآصر ، ويبلغ مدينة العمارة سالماً بسفينته .

الخاتمـــة

هذا ما انتهى إلينا من أخبار المآصر، وهو كما رأيت ، كلام جُمعت أجزاؤه من غير كتاب ، وضُمت فوائده بعد أن كانت منثورة في كثير من المظان ، تلك التي حاولنا جهد الطاقة أن نجمع أشتاتها ونصل ما بين حلقاتها ، لنخرجها على الوجه الذي بين يديك .

وقد بان لك من مطاوي البحث ان هذه المآصر بأصنافها الثلاثة : النهري والبري والبحري ، كانت جليلة القدر ، عظيمة الخطر ، وعلى أيديها كانت تنتظم أمور الحرب وسبل التجارة مدى أجيال كثيرة في بلدان الروم والاسلام .

———o———

(١) يطلق عليها أهالي جنوبي العراق اسم « الكار » .

(٢) يسميها الأهالي في تلك الأطراف « درمة » (بكسر الدال وتسكين الراء) .

استدراكات، وتصحيحات مطبعية

الصفحة	السطر	
٢٣	١	الكنيسة : ضرب من الهوادج ، أكبر من المحمل ، وأصغر من العمّارية . (ج : الكنائس).
٢٣	١	العمّارية : ضرب من القبة ، يوضع على بغل ، ويقعد فيه رجلان كل منهما في جانب . (ج : العمّاريات) .
٢٦	(الحاشية٤)	المسالك والمالك . صوابه : مسالك الممالك .
٤٠	(الحاشية٢)	ورد ذكر « المنصور » . والمراد به : «السلطان المنصور نور الدين عليّ بن المعز أيبك » .
٧٠	(قبل الأخير)	الشيج . صوابه : الشيخ .

* * *

الفهارس

- ١ -

فهرس الأشخاص والأقوام

﴿ فهرس الأشخاص والأقوام ﴾

﴿ فهرس الأشخاص والأقوام ﴾

— ٢ —

فهرس الامكنة والبقاع

(ا)

(ب)

فهرس الأمكنة والبقاع

﴿ فهرس الأمكنة والبقاع ﴾

﴿ فهرس الأمكنة والبقاع ﴾

فهرس الأمكنة والبقاع

فهرس الكتب والرسائل (المطبوعة والمخطوطة)، والمجلات، والمقالات (*)

(*) م = مجلة
ق = مقالة

﴿ فهرس الكتب والرسائل (المطبوعة والمخطوطة) ، والمجلات ، والمقالات ﴾

﴿ فهرس الكتب والرسائل (المطبوعة والمخطوطة) ، والمجلات ، والمقالات ﴾

— ٤ —

فهرس الالفاظ الدخيلة ، والمصطلحات ، وما الى ذلك

فهرس مواضيع الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

AL-MA'ASSIR

Land and Sea Toll Barriers

IN

Byzantine and Moslem Empires

STUDIES IN THE ECONOMIC HISTORY OF
MOSLEM STATES

BY
Michael Awad

AL-MAARIF PRINTING PRESS
BAGHDAD
1948

—/4-S

